تفريغ السلسلة الصوتية الصادرة
عن إذاعة البيان

أسباب النصر والهزيمة

في قصص بني إسرائيل

الطبعة الأولى - ١٤٤٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ سلسلة

أسباب النَّصر والهزيمة
في قصص بني إسرائيل

الصادرة عن إذاعة البيان

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ

مؤسسة صرح الخلافة

مركز إنتاج الأنصار

الفهرس

المقدمة.....٤
الحلقة ١: المقدمة.....٥
الحلقة ٢: قصة بقرة بني إسرائيل (١).....٩
الحلقة ٣: قصة بقرة بني إسرائيل (٢).....١٥
الحلقة ٤: قصة طالوت وجالوت (١).....٢١
الحلقة ٥: قصة طالوت وجالوت (٢).....٢٧
الحلقة ٦: قصة القوم الذين أبوا الجهاد.....٣٣
الحلقة ٧: قصة أصحاب السبت.....٤٠
الحلقة ٨: قصة أصحاب الكهف (١).....٤٧
الحلقة ٩: قصة أصحاب الكهف (٢).....٥٣
الحلقة ١٠: قصة أصحاب الكهف (٣).....٥٨
الحلقة ١١: قصة أصحاب الكهف (٤).....٦٥
الحلقة ١٢: قصة صاحب الجنتين.....٧١
الحلقة ١٣: قصة ذي القرنين (١).....٧٧
الحلقة ١٤: قصة ذي القرنين (٢).....٨٣
الحلقة ١٥: قصة قارون.....٨٩
الحلقة ١٦: قصة موسى عليه السلام مع فرعون وسحرته.....٩٨
الحلقة ١٧: قصة موسى عليه السلام مع السامري.....١٠٦

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يسر إخوانكم في مؤسسة صرح الخلافة أن يقدموا لكم تفريغًا لسلسلة (أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل) الصادرة عن إذاعة البيان، وهي من ١٧ حلقة. وتم مراجعتها نحويًا ولغويًا، وُجِّد في السلسلة: علامات التنصيص للآيات والأحاديث والأقوال كل على حسبه، ووحدت كذلك الألوان للآيات والأحاديث والأبيات كل على حسبه، وخرجت الأحاديث النبوية.

نسأل الله الكريم أن ينفع ويبارك فيها.

إخوانكم في صرح الخلافة

الحلقة ١: المقدمة

مستمعينا الأكارم، تستمعون الآن إلى برنامج "القواعد القويمة في أسباب النَّصر والهزيمة"

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونصلي ونسلِّم على خير خلق الله محمَّد رسول الله ﷺ، ثمَّ أمَّا بعد: فقد خلق الله آدم بيديه، وبثَّ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفةً في الأرض.

ومنذ اللَّحظة الأولى التي فتح فيها آدم عينيه، وجد عدوًّا يتربَّص به؛ قال -تعالى-: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)} [سورة الحجر]، فاستكبر إبليس -عليه لعنة الله- عن أمر الله، وحسد آدمَ على ما فضَّله الله به.

ومنذ ذلك الحين -إخوتي الكرام- كان صراع الحقِّ والباطل سنَّة من سنن الله -عز وجل- في خلقه وعلى أرضه إلى قيام السَّاعة، وهكذا على مدار التَّاريخ يوجد صراع بين الحق والباطل وبين الخير والشَّر، ينحاز فيه فئة من البشر إلى الحق فيتَّبعون الرُّسل، وفئة إلى الباطل فيتَّبعون الشَّيطان، وأتباع الرسل يسيرون في الحياة بمنهج الله -تبارك وتعالى- ويتحاكمون إلى شرع الله، ويرفعون راية التَّوحيد والإيمان وراية الجهاد ضدَّ أتباع الشيطان؛ قال -تعالى-: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)} [سورة النساء] .

وهكذا يظل الصِّراع دائرًا بين الحق والباطل، ثم يحدث في أتباع الرُّسل الانحرافات التي تقرِّبهم إلى الباطل وتبعدهم عن الحق، فيرسل الله الرسل مجدِّدين للناس إيمانَهم، ومبشِّرين لمن تبعهم بالنَّعيم المقيم ومنذرين لمن أبى إلا أن يتبع الشَّيطان بالعذاب الأليم.

وهكذا تدور عجلة التَّاريخ وتظلُّ تدور في صراع دائم بين الحق والباطل، وبين الموحِّدين من أتباع الرُّسل والمشركين من أتباع الشَّيطان؛ حتى أتمَّ الله -عز وجل- نوره ببعثة سيد المرسلين وخاتم النبيين -عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم-.

ومنذ بزوغ نجم هذا الدِّين واليهود عليهم -لعنة الله- هم أعدى أعداء المسلمين، وهم الذين يؤجِّجون الفتن بينهم، ويشعلون الحروب عليهم؛ قال -تعالى- عنهم: {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)} [سورة المائدة]، وهم يكيدون للإسلام المكائد ويدبِّرون له الدَّسائس؛ حقدًا وحسدًا منهم على المسلمين؛ قال -تعالى-: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا} لماذا؟ {حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [سورة البقرة: ١٠٩].

فقد كانوا -عليهم لعنة الله- كسلفهم وإمامهم إبليس -عليه من الله ما يستحق- يجحدون الحق لا لجهلهم بأنه الحق؛ بل هم أعلم الناس به؛ قال -تعالى-: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)} [سورة البقرة]، وإنما هؤلاء أبوا الحقَّ وجحدوه لاستكبارهم وحسد قلوبهم؛ فقد كانوا يظنون أنهم لا زالوا شعب الله المختار، وأنهم هم الذين فضَّلهم الله على العالمين، ولم ينتبهوا ولم يلتفتوا إلى أنهم بدَّلوا وغيَّروا وانحرفوا عن منهج الرُّسل وأفسدوا وضلُّوا وأضلُّوا، والله لا يحابي أحدًا في الحق.

فما كان منه -عز وجل- إلا أن استبدلهم بأمَّة أخرى وجعلها خير الأمم بعد أن كانت الخيريَّة فيهم، وأبدلهم من بعدِ {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} ومن بعدِ {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً} إلى {الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} وإلى لعنة الله -والعياذ بالله-.

قال -تعالى-: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ} من هم هؤلاء؟ هم اليهود {مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)} [سورة المائدة]، الله أكبر! بعد أن كانوا {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

الْعَالَمِينَ}، وبعد أن كانوا {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً}؛ صاروا {أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ}.

فما هو السِّر في التَّبديل، وما هو السَّبب في انقلاب الحال وتبدُّله؟ هكذا يبيّن الله -عز وجل- في الكتاب أنَّ الصِّراع بين الموحِّدين من أتباع محمد ﷺ والذين هم أتباع الرسل الحقيقيُّون، وبين اليهود الذين هم أتباع الشيطان إبليس -عليه وعليهم لعنة الله- هذا الصِّراع سيظل قائمًا إلى قيام السَّاعة، لا تنطفئ ناره ولا يخفت شراره، كما أخبرنا الصَّادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، كما عند الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ).

وبما أنَّ هذه الملحمة ستظل دائرةً قائمةً إلى قيام السَّاعة، وبما أنَّ أمة محمد ﷺ قد خصَّها الله -عز وجل- بالعمر القصير الذي يترتب عليه قلة الخبرات، بخلاف أمة بني إسرائيل ذات الأعمار الطويلة والخبرات الكثيرة، رسل بعد رسل بعد رسل وقصص وحكايات، خبرات كثيرة وأعمار طويلة؛ فعوَّض الله -عز وجل- برحمته أمة محمد ﷺ عن قصر عمرها وقلة خبرتها بسلاح عظيم تتفوَّق به على عدوِّها إن استمسكتْ به وحملته وما وضعته وعملت به؛ ألا وهو الكتاب والسُّنة؛ قال ﷺ: (تَرَكْتُ فِيكُمْ ما إن تمسَّكتم به فلن تضلُّوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي)[1]، فاهتمَّ الكتاب واعتنت السُّنة بذكر قصص بني إسرائيل، فجاء ذكرهم في مواضع كثيرة جدًا فيهما.

وما قدَّر الله -عز وجل- ذلك بغير حكمة وتدبير -حاشاه عز وجل- ولا ليقرأ المسلمون قصصهم من أجل الاستمتاع وإضاعة الوقت، وإنما كثر ذكرهم لحكمة بليغة وغاية عظيمة، ألا وهي أن يتدبَّر المسلمون قصصهم، فيستلهموا منها العبر والدُّروس ويستفيدوا

[1] رواه مالك وأحمد في فضائل الصحابة وابن عبد البر في جامع بيان العلم. قال ابن عبد البر في التمهيد: وهذا محفوظ معروف مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد وروي في ذلك من أخبار الآحاد أحاديث من أحاديث أبي هريرة وعمرو بن عوف.

من خبرات من كان قبلهم، فيعرفوا من قصصهم ومن حكاياتهم مواطن القوَّة وأسباب النصر والتمكين، ويعرفوا كذلك مواطن الضَّعف والخلل وأسباب الهزيمة.

فالقرآن الكريم والسنة الشريفة قد اعتنيا بذكر هذه الأسباب التي بدَّلت حال بني إسرائيل من {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} ومن {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا}، إلى {أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ ٱلسَّبِيلِ}، فهذا انقلاب الحال وهذا تبدُّل الحال إنما اعتنى الله -عز وجل- في كتابه واعتنى النبي ﷺ في سنته بذكر أسبابه ليتعلم المسلمون ويتدبَّروا ويستلهموا منه العبر والدُّروس.

ولو أنَّهم فعلوا ذلك؛ لحافظوا على أسباب الخيريَّة، وكانوا كما وصفهم الله -تعالى-: {خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [سورة آل عمران:١١٠]؛ وإلا لو تركوا هذا السِّلاح ووضعوه وأعرضوا عنه، لسلب الله منهم خيريَّتهم ولبدَّل حالهم فصاروا في أذيال الأمم، لا وزن لهم ولا قيمة لهم، كما أخبر النبي ﷺ حينما قال: (تُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا)، فقال قائل: "ومن قلَّة نحن يومئذ يا رسول الله؟" قال: (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كثير ولكنكم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ)، فقال قائل: "يا رسول الله وما الوهن؟" قال: (حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ)[١].

فهيَّا بنا -إخوتي الكرام- إلى القرآن من جديد وإلى سنَّة نبيِّنا ﷺ فلنستمسك بهما ولنتدبر ما فيهما من قصص، نستخرج العبر والدُّروس، ولنتعرف على أسباب النصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل؛ فنبدأ بإذن الله -تعالى- مع القصص في القرآن بترتيب المصحف، ثم القصص في السُّنة، ولنتدبر أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل.

أسأل الله -تعالى- أن يرزقنا الإخلاص والتَّوفيق والسَّداد، وأن يقينا الزَّلل والخطأ، وأن ينفع بهذه الدُّروس من سمعها، وأن يجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وجزاكم الله خيرًا، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

[١] رواه أحمد وأبو داود والبيهقي من طريق ثوبان رضي الله عنه. قال الأرنؤوط: حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي عبد السلام.

الحلقة ٢: قصة بقرة بني إسرائيل (١)

مستمعينا الأكارم، تستمعون الآن إلى برنامج "القواعد القويمة في أسباب النَّصر والهزيمة"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله -صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين- ثم أمَّا بعد؛ فأهلًا ومرحبًا بكم -إخوتي الكرام- ومع حلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة عجيبة غريبة، مع قصَّة قوم سألوا نبيهم سؤالًا، فجاء الجواب عجيبًا ليفضح هذا الجواب أقوامًا معانِدين، ويصدر لنا سرًّا من أسرار انقلاب الحال وتبدُّل الرِّضا بالسَّخط والتفضيل والتمكين بالهزيمة والذُّل والعار، وحتى لا يظن ظان أنها مجرَّد قصة طريفة ليس فيها كثير النَّفع؛ فقد سمَّى الله -عز وجل- أطول سور القرآن وأكثرها أحكامًا باسم هذه القصَّة، وإنما ذلك لينبِّه على أهميَّتها وخطورتها وضرورة النَّظر في هذه القصَّة، فـ"العناوين أنساب المضامين" كما قال أهل العلم، فهذا فيه تنبيه على ما تحتويه هذه القصَّة من معانٍ ودروس وعبر.

فهذا فيه لفت للأنظار إلى ضرورة تأمُّل هذه القصَّة والنَّظر لما تحتويه من معانٍ ودروس وعبر؛ لعلَّنا بفهم هذه القصَّة ندرك طبيعة الصِّراع الدَّائر بيننا وبين الكفَّار، وبين الحق والباطل في كل زمان ومكان، والذين هم -على رأسهم- اليهود من بني إسرائيل في زماننا؛ إنها قصَّة البقرة، تلكم القصَّة العجيبة الغريبة.

قال الله -تعالى-: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧)} [سورة البقرة]، أوَّل ما تلاحظ -أخي الكريم- في بداية القصَّة هي طريقة عرض السِّياق، فسياق القصَّة لم يأتِ على طبيعة

سياق الحكاية الذي يراعي فيه الترتيب الزَّمني، بل يلاحظ أنَّ السياق فيه تقديم وتأخير؛ فالسِّياق الطَّبيعي أن يقال: "وإذ قتلتم نفسًا فادَّارأتم فيها، فجئتم إلى موسى نبي الله -عليه السَّلام- فسألتموه فقال: اذبحوا بقرةً"؛ هذا هو طبيعة سياق الحكاية، يعني: حتى أنك إذا دخلت على رجل يحكي حكايةً، فجاء بالحكاية من الوسط تقول له: "احكِ الحكاية من أوَّلها حتى أفهم".

ولكنَّ الله -عز وجل- بدأ بطريقة مختلفة وعرض السِّياق بطريقة غير طريقة الحكاية، فبدأ بذكر أمره -تعالى- لهم بذبح البقرة، وذكرِ تعنُّتِهم ومماطلتِهم في تنفيذ أوامر الله -عز وجل- وفي هذا فائدة عظيمة، وهي الإشارة إلى العبرة المراد التَّنبيه عليها، حيث المراد والشَّاهد في القصَّة هو تنبيه وتحذير المسلمين أن لا يكونوا كبني إسرائيل في المماطلة في امتثال أمر الله -تعالى- والتعنُّت والتشديد على أنفسهم في تنفيذ أوامر الله.

فهؤلاء القوم الذين انقلب حالهم من {فَضَّلْتُهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ} ومِن {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً} إلى {مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}؛ كان من أسباب انقلاب هذا الحال وتبدُّله أنهم ماطلوا في الامتثال والاستجابة لأوامر الله -عز وجل- وأوامر رسوله ﷺ وشدَّدوا على أنفسهم، فشدَّد الله عليهم بسبب عنادهم وجدلهم.

فيا مَن جعلناكم {خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}؛ لو فعلتم مثل ما فعلوا لانقلب حالكم وانهارت خيريَّتكم، كما حدث مع هذه الأمَّة التي مضت، وبالعكس؛ لو امتثلتم أوامر الله وسارعتم في الاستجابة لله ولرسوله؛ لحافظتم على خيريَّتكم، ولنلتم السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

وأصل القصَّة -إخوتي الكرام- أنَّ بني إسرائيل قُتِل منهم قتيل فاحتاروا مَن الذي قتله، فذهبوا إلى نبي الله موسى -عليه السَّلام- ليسألوه عن قاتل هذا القتيل؛ فقال: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً}، فاعترض بنو إسرائيل على هذا الفارق بين السُّؤال والجواب، وكان المفترض -وهم يخاطبون نبيًّا يتحدَّث عن الله- أن يسلِّموا، خاصَّة مع وضوح نسبة

كلامه إلى الله، حيث قال لهم نبيهم موسى -عليه السلام-: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ}، فهذه نسبة واضحة أنَّ الأمر من الله.

ومع كون موسى -عليه السَّلام- لا يحتاج أن يقول: {إنَّ اللهَ يأمركم}، ويكفي أن يقول: "اذبحوا بقرة"، فأمر النبي واجب كأمر الله، إلا أنَّ نسبة الكلام إلى الله يزيده قداسةً ويزيده رفعةً وعلوًا، فيصير آكد في وجوب الامتثال وسرعة الاستجابة، فإذا قال النبي ﷺ: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ}، فالأمر آكد أنه من الله، وآكد في إفادة الحتم والإلزام.

فكان سوء الأدب مع الله بعدم امتثال أمره سببًا في انتكاس حالهم؛ وكان كذلك سوء أدبهم مع نبيهم والذي هو كذلك من أسباب انقلاب حالهم؛ أن أجابوه بهذه الإجابة المستشنعة فقالوا: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوا}، سبحان الله! وهل لنبيٍّ أن يهزأ في دين الله؟! إنَّ الاستهزاء في دين الله كفر بالإجماع، فكيف يليق بنبي أن يهزأ في دين الله؟! هذا من سوء الأدب.

ومع هذا؛ فقد قابل نبي الله موسى -عليه السَّلام- جهلهم بحلم ولطف، فقال -عليه السَّلام-: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}؛ ثم المصيبة الأعظم أنهم أضافوا إلى ردهم المستشنع هذا قولًا أشنع منه، فقالوا: {ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِي} {ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ}! ما هذا الجفاء، ما هذه الغلظة؟! غلظة القلوب! {ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ}! لا ينسبون الله لأنفسهم.

هذا من سوء الأدب مع الله -عز وجل-؛ فالإنسان يتشرَّف بنسبته إلى الله؛ ما نحن إلا عبيد بيد الله -عز وجل- لا حيلة لنا ولا قوة لنا؛ فالإنسان المؤمن التقيُّ النقي ينسب نفسه إلى الله ويفتخر ويتشرَّف بهذا؛ {إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ}، {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، هذا هو الأدب الجمُّ الرَّفيع؛ أمَّا أن ينسب الله -عز وجل- لغيره فيقول: {ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ}؛ فهذا من سوء الأدب مع الله -عز وجل-.

ثم انظر إلى هذا السُّؤال العجيب الغريب: {قالوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِي}، فماهية الشيء هي حقيقته وأصله، والعجيب أنَّ الله -عز وجل- أمرهم أمرًا مطلقًا مجردًا، قال:

(اذبحوا بقرة)؛ فهو أمر واضح ما يحتاج سؤالًا عن الماهية وما يحتاج استفسارًا؛ فالأمر جاء على الإطلاق إذ قال: (اذبحوا بقرةً) ولم يقيد الوصف بقيد معيَّن.

فلو أنَّ نبيَّهم قال لهم مثلًا: "اذبحوا بقرةً جيِّدةً" أو "اذبحوا بقرةً ثمينةً" فقيَّد الوصف بغلوِّ الثَّمن، فلعلَّ المأمور يستفصل يقول: "ثمينة لكثرة لحمها، أم لكونها نجيبةً تعمل في الحقل، أم لكونها -مثلًا- ولودةً؟"، فعند التَّقييد يكون السُّؤال عن الماهية له معنى، أمَّا عند الإطلاق (اذبحوا بقرةً)، فما هي حاجة الاستفسار؟! لا حاجة للاستفسار، وهذا بيان واضح على غدر بني إسرائيل، وأنَّ سؤالهم ليس له معنًى إلا المماطلة في إجابة أمر الله -عز وجل-.

لذا أجابهم نبي الله موسى -عليه السَّلام- بجواب آكد من الأوَّل؛ فقال في الأوَّل: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ}، ثمَّ أكد على ذلك مرةً أخرى لإقامة الحجَّة عليهم، فافتتح الكلام مكررًا ومذكِّرًا لهم: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ} ثمَّ اختتمه بقوله: {فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ}؛ وذلك للتَّغليظ عليهم في أنَّ هذا الذي أقول هو أمر الله وليس كلامي، مع كونه نبيًّا -عليه السَّلام- فكلامه واجب الطَّاعة، ومع هذا يؤكِّد لهم: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ}، ثم يختم الكلام: {فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ}، أي: أنَّ هذا أمر من الله ليس على سبيل الاستحباب، بل هو على سبيل الحتم والإلزام، {فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ}.

ما لكم -يا قوم- أردتم ماهيَّتها؟ فقد ذكرت لكم ماهيتها: {بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ} أي: ليست بالكبيرة، {وَلَا بِكۡرٌ} أي ليست بالصَّغيرة لدرجة البكريَّة، {عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ}، أي وسط بين الكبر والصِّغر، {فافعلوا ما تؤمرون} وامتثلوا أمر الله، فأمر الله واضح، لا يحتاج كل هذه الأسئلة ولا يحتاج كل هذا التَّفصيل، ومع هذا فقد زدته لكم وضوحًا؛ فاستجيبوا لأمر الله وافعلوا ما تؤمرون؛ إلا أنهم أبوا إلا المماطلة، وصاروا يسألون أسئلةً لا معنى لها، فقالوا: {ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا}، ما لونها؟! سبحان الله! وكم للبقر من ألوان حتى بعد هذا التَّفصيل تسألون عن اللون؟! ما هذا التعنُّت؟! ما هذه الأسئلة التي لا معنى لها؟!

وفي هذا فائدة هامَّة، وهو عدم السُّؤال فيما لا يفيد وعدم الانشغال بما لا ينفع، بعض الناس ينشغل بأشياء العلم بها لا ينفع، والجهل بها لا يضرُّ، فتجد هذا يسألك: "هل تزوجت امرأة العزيز بيوسف -عليه السَّلام-"، وآخر يسألك: "هل تُزوَّج امرأة فرعون بالنبي ﷺ في الجنَّة"، وآخر يسألك: "وكم هو عدد أصحاب الكهف"، وآخر يسأل: "ومَن هو صاحب هذه البقرة الذي باعها لبني إسرائيل"؟ يا قوم، ما فائدة هذه الأسئلة، وما هو النَّفع العائد من ورائها؟! أسئلة لا قيمة لها ولا فائدة لها، بل هي تشغل عن الفائدة المرجوَّة المرادة من القصَّة.

لذلك كان النبي ﷺ يحذِّر أمته من هذه الأسئلة التي لا معنى لها، فقال -كما في صحيح مسلم وغيره-: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ)، وكان ﷺ ينهى عن قيل وقال وكثرة السُّؤال، ولما جاءه ﷺ رجل يسأل عن السَّاعة، فيقول: "يا رسول الله، متى السَّاعة؟" فأجابه بجواب الحكيم فقال: (وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟)[1] فوجَّهه ﷺ للسُّؤال عمَّا ينفع، ما يفيدك أن تعلم متى السَّاعة، وإنما يفيدك أن تعلم ماذا ينبغي عليك أن تعدَّ لها؛ فالمسلم الحريص يشغل نفسه بما ينفعه، كما أوصاه النبي ﷺ فقال -كما عند مسلم وغيره-: (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَلَا تَعْجَزْ).

ورغم هذا التعنُّت الواضح من بني إسرائيل -إخوتي الكرام-؛ إلا أنَّ نبي الله موسى -عليه السلام- أجابهم بحلم ولطف، فقال: {إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ}، فأكَّد مرةً أخرى أنَّ الكلام من الله، وما أنا إلا ناقل عن الله: {إِنَّهُۥ يَقُولُ} أي: أنَّ الله هو الذي يقول: {إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا} أي: بقرة صفراء لونها صافٍ لا شائبة فيه، يَعجَب من يراها من جمال لونها ويُسَرُّ.

والعجب -وبعد هذا الوصف كلِّه- يقولون لنبيهم: {ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا}، سبحان الله! بعد كل هذا الوصف تشابه عليكم البقر؟! بعد كل هذا

[1] متفق عليه.

الوصف اشتباه وحيرة؟! لكنَّه عقاب الله -عز وجل- لما شدَّدوا على أنفسهم، فأعمى الله بصرهم بعد أن أعمى بصيرتهم، فتشابه البقر عليهم؛ عقابًا من الله وتشديدًا عليهم، ومع هذا يجيبهم نبيهم موسى -عليه السَّلام- بكل حلم وصبر.

وفي هذا فائدة هامَّة عظيمة، وهي أنَّ الدَّاعية الصَّادق عليه أن يصبر على المخالف، ولا يزيده جهل المخالف إلا حلمًا، فعلى كل من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن ينتبه لهذا الأمر الخطير، فلا يكون بأمره ونهيه ودعوته إلى الحق مَصَدًّا عن الحق، بل عليه أن يصبر على المخالف ويحلم عليه ويرجو له الخير.

وليتذكَّر المحتسب على النَّاس أنَّ الله قد أمر من هو خير منه -وهما نبي الله موسى وهارون عليهما السَّلام- أن يذهبا لدعوة من هو شرٌّ من هذا المخالف الذي يحتسب عليه -وهو فرعون عليه لعنة الله- فقال -عز وجل-: {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)} [سورة طه].

فعليك -أخي المحتسب- أن تتلطَّف بالمخالف، خاصَّة إن علمتَ أنَّ هذا المخالف جاهل قد قبع في ظلمات البدع والضَّلال سنوات طويلةً، ففرِّق بين المعاند المحارب لدين الله وبين الجاهل الذي لا يعلم الحقَّ من الباطل، الذي عاش أكثر عمره في الباطل يظنُّه حقًّا، فلا تتعجَّل الثمرة فتطلب نضجها قبل أوانها، واعلم أنَّ الله يفتح باللِّين ما لا يفتحه بالغلظة.

أسأل الله -عز وجل- أن يفتح لنا قلوب العباد والبلاد، وأن يجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- نستكمل قصَّة البقرة ومع "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ٣: قصة بقرة بني إسرائيل (٢)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- ومع حلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

وكنَّا في الحلقة الماضية بدأنا الكلام عن قصَّة البقرة، تلكم القصَّة العجيبة الغريبة التي سمَّى الله -تعالى- بها أطولَ سور القرآن وأكثرها أحكامًا، في إشارة لأهمِّيَّة وخطورة هذه القصَّة وضرورة النَّظر إلى ما فيها من العبر والدُّروس.

وملخَّص ما ذكرناه في الحلقة الماضية أنَّ بني إسرائيل قُتِل لهم قتيل، فاحتاروا فيمن قتله، فذهبوا إلى نبيِّ الله موسى -عليه السَّلام- وطلبوا أن يسبر لهم أسرار هذه الجريمة، فقال لهم موسى -عليه السَّلام-: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ}، وهنا بدأ مسلسل الإساءة من بني إسرائيل مع نبيِّهم ومع أمر ربهم -عز وجل-، فأخذوا يسيئون الأدب إليه، فيقولون له: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗا}، ويقولون له: {ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ}.

وأخذوا يماطلون في تنفيذ أمر الله لهم مع تشديد موسى -عليه السَّلام- عليهم بأنَّ هذا أمر الله وأنَّ طاعته واجبة {فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ}، لكنهم أصرُّوا على عدم الإذعان والاستسلام لأمر الله -تعالى-، وأخذوا يسألون أسئلةً لا معنى لها، فيسألون عن ماهية البقرة، فيبين لهم موسى -عليه السلام- بصبر وحلم عجيب فيقول: {إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ}، أي: لا كبيرة ولا صغيرة، وإنَّما وسط بين الأمرين. فلما وضَّح لهم، أصرُّوا على الجدال فقالوا: {ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَا}، فبيَّن لهم أنَّها {بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ

لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ}، ثمَّ بعد كل هذه الأوصاف؛ إذا بهم يسألون عن ماهية البقرة مرَّةً أخرى، فسبحان الله! أبعد كل هذا الوصف لم تعرفوا ماهيتها؟!

ومع هذا، ومع جهلهم على نبيِّ الله موسى وتعنُّتهم في سؤاله ومماطلتهم في إجابة أمر الله -عز وجل-؛ فهذا نبيُّ الله موسى -عليه السَّلام- يجيبهم بكل حلم وصبر عجيب فيقول: {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}.

{بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ}، أي: بقرة لم تذلَّلْ للحرث والعمل في زراعة الأرض {وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ}، أي: لم تذلَّلْ أيضًا في سقاية الزَّرع بإدارة السَّواق {مُسَلَّمَةٌ}، أي: وهي كذلك سالمة من العيوب {لَّا شِيَةَ فِيهَا}، أي: لا لون فيها غير اللون الذي ذُكِر من قبل، أو لعلَّ المراد: لا شائبة في وصف واحد من أوصافها التي ذُكِرَت من قبل، وهذا من تشديد الله عليهم، فشدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم.

وهكذا -إخوتي الكرام- لم تعد البقرة بقرة متوسِّطة العمر صفراء فاقعٌ لونها فارهة فحسب، تسرُّ الناظرين وتعجبهم فحسب؛ بل لم يعد بُدٌّ أن تكون مع هذه الأوصاف كلها بقرة غير مذلَّلة للحرث ولا مدرَّبة على حرث الأرض أو سقي الزَّرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون، لا تشوبها شائبة ولا علامة، فشدَّدوا فشدَّد الله عليهم -نسأل الله السَّلامة والعافية-.

وهنا فقط، وبعد أن تعقَّد الأمر وتضاعفت الشُّروط وضاق مجال الاختيار {قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}! سبحان الله! فقط الآن! كأنَّما كان كل ما مضى ليس حقًّا، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا هذه اللحظة -أعوذ بالله-.

لذلك فضحهم الله -عز وجل- بقوله: {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}، ومع كون السِّياق واضحا في بيان مكرهم ولؤمهم في المماطلة في امتثال أمر الله -عز وجل-؛ لكنَّ الله -عز وجل- إنما بيَّن ذلك وأكَّد عليه بقوله: {وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}؛ للتنبيه على المراد من القصَّة

والعبرة فيها حتى لا ينشغل المستمع أو القارئ بجزئيات الحكاية عن العبرة المراد التنبيه عليها، وهو التنبيه على أسباب ذلَّة هذه الأمة وتحوُّلهم من خير أمة إلى أذل أمة، والتَّحذير من أن تقع أمة القرآن في مثل ما وقعوا، فيكون عاقبتهم بمثل عاقبتهم.

فمن أسباب هزيمة الأمَّة هو المماطلة في امتثال أوامر الله -عز وجل-؛ لذا نبَّه الله -عز وجل- على ذلك في أكثر من موضع؛ فقال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةًۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)} [سورة الأنفال] فالتباطؤ والتلكؤ والمماطلة في الاستجابة لله وللرَّسول توجب العقاب العام، وتوجب انقلاب الحال كما بيَّن الله -عز وجل-: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةًۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، أي: اعلموا أنَّ الله لا يحابي أحدًا في الحق.

وقال -تعالى-: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧)} [سورة الشورى]، وقال -تعالى-: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)} [سورة آل عمران]، وقال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)} [سورة الأنفال].

فالأمَّة التي تماطل في امتثال أوامر الله أمَّةٌ مهزومة لا تعرف طريق النَّصر، ولن تذوق طعم الرَّاحة في الدُّنيا، ناهيك عن الآخرة، ولن تجد إلا الكدَّ والتَّعب والذُّل والهوان، وما تقلَّصت رقعة دار الإسلام في الأرض إلا بعدما تقلَّصت رقعة الدِّين في قلوب المنتمين إلى الإسلام، ولو تمدَّدت رقعة الدِّين في قلوب الناس لتمدَّدت رقعة دار الإسلام على الأرض، ولتمدَّدت رقعة الخير في السَّماوات والأرض.

بعض النَّاس يشتكي ضيق المعيشة وغلاء الأسعار، وإنَّما هذا من كسبهم وإعراضهم عن أمر ربهم، وقد قال الله -تعالى- وبيَّن أنَّ مِن سننه في خلقه التي لا تتخلَّف أنَّ من يعرض عنه فإنَّه يعاقبه بضنك المعيشة؛ قال -تعالى-: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)} [سورة طه].

ولو سألتَ أكثر القاعدين عن الجهاد اليوم والقابعين في ديار الكفر؛ لماذا لا تهاجرون إلى دار الإسلام؟ لماذا لا تقاتلون في سبيل الله؟ تعالوا، قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا؛ فإمَّا أن تجدَ لهم الأعذار والحجج الواهيات وإمَّا أن تراهم يقول لك أحدهم: "إن شاء الله، لكن أنا فقط أنتظر كذا أو مشغول في كذا؛ فبمجرَّد أن يأتي هذا الذي أنتظره أو بمجرَّد أن أنتهي من هذا الذي أنا مشغول فيه؛ أجاهد -إن شاء الله-".

يا أخي الكريم، ما هو الفرق بينك وبين هؤلاء القوم من بني إسرائيل الذين ماطلوا في أمر الله وتباطؤوا في امتثال أمر الله -عز وجل-؟ قال -تعالى-: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ} [سورة البقرة: ٢١٦]، وقال -تعالى-: {ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا} [سورة التوبة: ٤١]، فلماذا هذا التَّباطؤ؟! فلماذا هذا التلكُّؤ في امتثال أمر الله -تعالى-؟! هؤلاء ماطلوا في أمر الله فعاقبهم الله؛ واليوم كثير من المسلمين يشتكي ما يصيبه من ضنك المعيشة وضياع البركة في الأهل والمال وفي الوقت والصِّحة، وهو لا يدري أنَّ هذا من كسب يديه.

كثيرٌ من النَّاس اليوم يتعامل بالرِّبا، فيرهن بيته بالرِّبا، ويشتري سيَّارته بالرِّبا، ويبيع محصوله بالرِّبا، وبعض النِّساء تلبس الحجاب خوفًا من سلطان الدَّولة لا خوفًا من الجبَّار خالقها وخالق الدَّولة، والبعض يخفي الدُّخان خوفًا من أعين الدَّولة، ونسي هذا المسكين أنَّ العليم البصير ربه ورب هذه الدَّولة يراه أينما كان، {يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ}.

إذا خلوتَ الدَّهر يومًا فلا تقلْ *** خلوتُ ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبن أنَّ الله يغفل ساعةً *** أو أنَّ ما تخفي عليه يغيبُ

بعضهم أمره الله -عز وجل- بإعفاء اللِّحية، فيطلق بعضها ويحلق بعضها، لماذا يا عبد الله؟ حتى إذا دارت الدَّوائر لم يصنَّف من المؤيِّدين للدَّولة، ونسي هذا المسكين أنَّ الذي أمره بإعفاء اللحية ليست الدَّولة، بل هو ربُّ هذه الدَّولة ورسول رب هذه الدَّولة، {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)} [سورة المائدة].

بعض النَّاس يتحايل ليخفي زكاة ماله، في حين أنَّ الله الذي سيحاسبه على هذه الزَّكاة وليست الدَّولة، {وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٩٨)} [سورة التوبة].

يا عبد الله، القرآن يفضحك! القرآن فيه ذكر الأوَّلين والآخِرين، القرآن فيه كل الخير، هذا هو حال من يشتكي ضيق المعيشة، هذا هو حال من يشتكي تأخُّر النَّصر والتَّمكين، ولو كنَّا كسلفنا -رضوان الله عليهم- لما كان هذا حالنا، فإنما مكَّن الله ووسَّع عليهم لسرعة استجابتهم وتلبيتهم أوامر الله ورسوله ﷺ.

فها هم -رضي الله عنهم- وقد كانت العربُ تشرب الخمر كما تشرب أنت يا صاحبَ الدُّخان الماء، ومع هذا لمَّا نزل قول الله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩٢)} [سورة المائدة]، فبمجرَّد أن سمعوا قول الله -تعالى- {فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} قاموا سراعًا، فأهرقوا الخمر حتى سالت شوارع المدينة وسككُها بالخمر، بل كان في يد أحدهم كأس خمر فلم يقل: "أشربه ثمَّ أنتهي"! بل ألقاه في الحال وقال: "انتهيتُ يا رب"، بل كان في فم أحدهم شربة خمر فلم يقل: "أبتلعها ثمَّ أنتهي"! بل مجَّها من فمه في الحال وقال: "انتهيتُ يا رب".

وهذه آية الحجاب تنزل، فيسارع نساء الصَّحابة في امتثال أمر الله -تعالى-، حتى أنَّ بعضهنَّ لم تكن عندها ثياب، فلم تقل: "أنتظر حتى أشتري الثِّياب"! بل عمدن -رضي الله عنهنَّ- إلى مروطهنَّ، فشَقَقْنَهُنَّ واحتجبنَ بها.

وها هو النبيُّ ﷺ يأمر بالصَّدقة، فيتحامل أحدهم أن يعمل حمَّالًا في السُّوق طيلة النَّهار، لا ليأتي بلقمة العيش لأهله وأبنائه، لا ينظر هذه اللقمة جاء بها من حلال أم حرام، اسمع يا عبد الله، انظر كيف كان يفعل أصحاب النبي ﷺ وكيف كانوا يسارعون في امتثال

أمر الله -عز وجل-، يعمل حمَّالًا في السُّوق طيلة النهار؛ حتى يصيب المدَّ، فيتصدَّق امتثالا لأمر رسول الله ﷺ.

هذه هي الأمَّة التي حُقَّ لها أن تنتصر وحُقَّ لها أن تمكَّن، أمَّا الأمَّة التي تماطل في أوامر الله ولا تمتثل أمره إلا بشقِّ الأنفس؛ أمَّة لا تستحقُّ الخيريَّة ولا تستحقُّ العزَّة، فليس لمثل هذه الأمَّة إلا الذُّل والهوان وضيق العيش، ليس لها إلا أن تكون في أذيال الأمم، ذليلة لأهل الكفر يستبيحون بيضتها، ليس لها إلا التِّيه في الدُّنيا والخيبة والخسران في الآخرة -والعياذ بالله-.

فهيا بنا -إخوتي الكرام- هيا نستجيبُ لله وللرَّسول إذا دعانا لما يحيينا، هيا بنا -إخوتي الكرام- إلى القرآن من جديد، نقف ونتدبَّر هذه القصَّة التي سمِّيت بها أطول سور القرآن، فنعمل بها ونعمل بما فيها من الدُّروس والعبر، سائلين الله -عز وجل- أن يرضى عنَّا.

أسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا بما علَّمنا وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- ومع قصَّة أخرى من قصص بني إسرائيل نَسْتَلْهِمُ منها العبر والدُّروس، وإلى حلقة جديدة -إن شاء الله تعالى- من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته.

الحلقة ٤: قصة طالوت وجالوت (١)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخِرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- ومع حلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم مع قصَّة قوم مغلوبين مهزومين أُخرِجُوا من ديارهم، وفُرِّق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم، وتاهوا في جنبات الأرض سنوات طويلةً حتى اشتاقوا إلى النَّصر والعزَّة والتَّمكين؛ قال -تعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)} [سورة البقرة].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ} الملأ من القوم وجوههم وأشرافهم، وهؤلاء لما غصَّت حلوقهم لتأخُّر النَّصر والتَّمكين وطول زمان الهزيمة، واشتاقت أنفسهم للنَّصر والتَّمكين، قالوا لنبيٍّ لهم لا نعرف اسمه، كعادة القرآن؛ حيث لم يعيِّن الزَّمان ولا المكان الذين كانوا فيهما، فليس القرآن تاريخًا ولا قصصًا مجرَّدةً، وإنَّما هو هداية وموعظة، فلا يذكر قصَّةً لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكُّه بها، أو الإحاطة بتفاصيلها، وإنَّما يذكر ما يذكره لأجل العبرة، كما قال -تعالى-: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ} [سورة يوسف: ١١١]، ويذكر ما يذكر لبيان السُّنن الرَّبانيَّة التي جعلها الله ناموسًا لا يتخلَّف، كما قال -تعالى-: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧)} [سورة آل عمران]، وقال أيضًا: {سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ} [سورة غافر: ٨٥]،

فيكتفي القرآن من القصَّة بموضع العبرة ومحلِّ الفائدة، ولا يأتي بها مفصَّلةً بجزئيَّاتها التي لا تزيد في العبرة، بل ربَّما تُشغِل عنها.

فلا يهمنا مَن هو النَّبي ومَن السَّائلون، إنما يهمنا العبرة من القصَّة، فهم قوم أزعجتهم الهزيمة وغصَّ في حلوقهم أن يتغلَّب الكفَّار عليهم، وألَّا تكون كلمة الله هي العليا، فقالوا لهذا النَّبي الكريم: {ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، وكما هو معلوم؛ أنَّ النبوَّة والملك لم يجتمعا في بني إسرائيل قبل داود -عليه السَّلام- فطلبوا القتال في سبيل الله {نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فكان جواب هذا النبيِّ الحكيم الخبير بآفات قومه وأمراض قلوبهم: {قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا}، فخاف هذا النبيُّ ألَّا يَصْدُقُوا اللهَ -عز وجل- فيما يقولون، فإذا سأل الله أن يختار لهم هذا الملك خذلوه وتولَّوا عن أمر الله.

فكم مِن قائل: "متى يُفتَح باب الجهاد؟! آهٍ لو يسَّر الله الجهاد!"، فلما فتح الله الجهاد ويسَّر سبله وصار للمسلمين دولة؛ تقاعس عن الهجرة وقعد عن الجهاد، وتولَّى إلا مَن رحم الله، فهذا قعد خوفًا من الفتنة، وهذا قعد معتذرًا بالأهل، وهذا يقول: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}؛ فسبحان الله! ما أشبه اليوم بالبارحة! {سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا}، {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا}.

وفي هذا درس هامٌّ للأمراء والقادة، وهو ألَّا ينجرفوا وينجرُّوا خلف عواطف جنودهم أو صراخ جماهيرهم، بل عليهم دراسة كل خطوة يخطونها، فالقائد الحكيم هو الذي لا يضع قدمه إلا على أرض ثابتة، وهكذا -إخوتي الكرام- هو الجهاد، هو الذي يمحِّص ويفضح النُّفوس الضَّعيفة، قال -تعالى-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢)} [سورة آل عمران].

فبمجرَّد أن كُتِبَ عليهم الجهاد؛ إذا فريق منهم يتخلَّف بلا عذر ولا سبب، سبحان الله! كم من واحدٍ تُكلِّمه: لماذا يا فلان لا تهاجر؟ لماذا لا تجاهد في سبيل الله؟ يقول لك: "إن شاء الله، الله ينصركم"، فتفرح به أيَّما فرح، ثم تمرُّ الأيَّام والشُّهور وعبد الله قابع في دار الكفر قاعد عن الجهاد! يا عبد الله، ألا تأتي فتجاهد؟ ألا تأتي فتدفع معنا الكفَّار؟ فيقول: "إن

شاء الله، بإذن الله، ادع الله لي"، الله المستعان، فهذه طبيعة الجهاد، الجهاد فريضة فاضحة ممحِّصة للنُّفوس الضَّعيفة.

قال -تعالى-: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)} [سورة البقرة].

وهكذا -إخوتي في الله- تبقى فئة فيها بعض الخير فترغب في الجهاد، إلا أنَّ الشَّيطان لا ييأس منها، فيفتح عليها باب المطامع والمصالح والرَّغبات الشَّخصيَّة، وباب الحقد والحسد والنَّظر لما منَّ الله به على غيرهم.

فهذه طائفة أخرى تُعرِض عن الجهاد بحجَّة أحقيَّتها بالإمارة والصَّدارة، وهذا لسان حال بعض ممَّن هاجروا وشاركوا في الجهاد، لكن الشَّيطان لم ييأس منهم، وظنُّوا أنهم بوطئهم لأرض الجهاد صاروا محصَّنين من مكائد الشَّيطان ومن خطواته، فتركوا الجهاد لأسباب واهية؛ فهذا يدَّعي أنَّ أميره غير كفء، وهذا يدَّعي أنَّ التَّخطيط لم يكن على المستوى المطلوب، وهذا يدَّعي أنه لم يُقدَّر التقدير المناسب اللَّائق بمكانته، إلى آخر هذه الأعذار التي ما يريد الشَّيطان منها إلا أن يصدَّه عن الجهاد في سبيل الله.

{قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ} الله أكبر! إنَّها السُّنن! كم ضيَّعت هذه العبارة مِن أقوام، وكم فرَّقت من جماعات، وكم مزَّقت مِن صفوف، وكم عطَّلت من فتوحات في أرض رُفعت فيها راية الجهاد، آهٍ من هذه العبارة، آهٍ من هذه العبارة! هذه العبارة التي في حقيقتها هدم للإخلاص، ونقض للإذعان؛ لذا قدَّم نبيهم -عليه السلام- الكلام بالتَّأكيد على أنَّ هذا اختيار الله، مع أنَّه لو قال لهم: "قد اخترتُ لكم طالوت"؛ لكان اختياره نافذًا ملزمًا، إذ أنَّ طاعته من طاعة الله، لكن لعلمِه بمكرهم وخبرتِه بحالهم قال لهم: {إِنَّ ٱللَّهَ} أي: إنَّ الله هو الذي اختار {إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا}، أي: هذا

اختيار الحكيم الخبير، هذا اختيار العليم البصير، فامتثلوا أمرَ الله ولا تَخذُلون ولا تُخَذِّلون؛ لكن من اتَّبع هواه أنَّى له أن يبصر هذه العبارات ويفهم هذه الإشارات؟!

ومع هذا؛ فقد بيَّن لهم نبيهم -عليه السلام- علَّة هذا الاختيار، مع كونه لا يحتاج لهذا؛ فأمر الله واجب، ومع هذا فقد قال لهم: {إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ}، فافتتح كلامه للمرَّة الثانية تأكيدًا وتذكيرًا لهم أنَّ هذا اختيار الله لهم، فلا يجوز لهم التلكُّؤ والمجادلة في أوامر الله، ثم بيَّن لهم العلَّة في اختياره، وهو أنَّه أكثرهم علمًا وأشدُّهم بأسًا، وفي ذلك فائدة هامَّة، وهي أنَّه يستحبُّ للقائد والأمير عند اختياره أن يجمع بين هاتين الصِّفتين؛ فيجمع بين العلم الشَّرعي والعسكري، وكذلك شدَّة البأس، والتي عبَّر عنها القرآن بقوَّة الجسم.

وكذلك ينبغي لمن يختار الأمير أن ينظر في هاتين الصِّفتين بحيث تكونان متوازنتين، فلا يكون صاحب علم ولكنَّه ضعيف القلب هزيل الجسم؛ لأنَّه سيكون أسوةً وقدوةً لجنوده، فقد يخذلهم ضعفه وجبنه، وكذلك لا يكون صاحب قوَّة وبأس بغير علم، فيهلك جنوده لقلة خبرته العسكريَّة أو يهلكهم بالوقوع في الحرام لقلة علمه الشَّرعي.

وهكذا -إخوتي في الله- يبيِّن هذا النَّبيُّ الكريم -عليه السلام- العلَّة في اختيار هذا الملك، ثمَّ يؤكِّد كلامه مرَّةً أخرى فيذكِّرهم بأنَّ الله يفعل ما يشاء، وأنَّ الله لا يُسأَل عمَّا يفعل وهم يُسأَلون، وأنَّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فقال: {وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} ومع هذا كله؛ أعرضوا وجادلوا ورفضوا الخروج للجهاد في سبيل الله الذي طلبوه وادَّعوا أنَّه في سبيل الله.

يا قوم، يا قوم، ألم تكونوا تدعون الله -عز وجل- أن يفتح عليكم الجهاد؟! ألم تكونوا تدعون الله -عز وجل- أن يقيم للإسلام دولة؟! ألم يكن هذا حلم وأمنية من أعظم أمانيكم؟! ألم تكونوا تطلبون أن يبعث الله لكم ملكًا؟! و"ملكًا" جاءت نكرة في سياق الإثبات، وهذا يفيد العموم، يعني: أيَّ ملك، المهمُّ أن نجاهد في سبيل الله، المهم أن يكون للمسلمين قائد وخليفة يتوحَّد الناس خلفه ويلتفُّون حوله.

فلما اختار الله لكم ملكًا، صرتم تفصِّلون وتتشرَّطون على الله -عز وجل- "من هذا الطالوت؟ وأنَّى يكون له الملك؟ من هذا المجهول الذي لا يعرفه أحد؟ ومن هؤلاء الذين بايعوه حتى يكون ملكًا علينا؟!" وأخذوا يخترعون شروطًا وهميَّةً مختلقةً لهذا الملك ما أنزل الله بها من سلطان كعادة المنافقين في كل زمان، فقالوا: إنه حتى لم يُؤتَ سعةً من المال حتى نتبعه ويكون خليفةً لنا وقائدًا لنا، لم يُؤت سعة من المال! لم يؤت سعة من المال! وما علاقة الغنى والفقر بالقدرة على الإمامة؟! لكنَّهم خبثاء يريدون أن يزيِّفوا الحقائق على الناس ويبرِّروا قعودهم وتخلُّفهم وتخذيلهم للمجاهدين بهذه الحجج الواهية المفضوحة.

سبحان الله! ما أشبه اللَّيلة بالبارحة! والله -أيها المستمع الكريم- وكأنِّي بك أتكلَّم عن اليوم، فانظر إلى هذا القرآن العظيم غضًّا طريًّا وكأنه لا زال ينزل حتى الآن، فاضطُرَّ هذا النبي الكريم أن يؤيِّد هذا الملك بآية عظيمة حتى يصدِّقوه ويتَّبعوه، فجاءهم التَّابوت الذي فيه بقيَّة ممَّا ترك آل موسى وآل هارون، وليس فقط جاءهم هكذا، بل جاءهم تحمله الملائكة، ومع كونه لا يحتاج إلى هذا، ولكن ليقيم عليهم الحجَّة ويقطعَ عنهم الأعذار، فرضخ أقوام وأعرض أقوام، فكانت سنَّة التمحيص من جديد تنحِّي فئةً جديدةً لا تستحقُّ هذا الشَّرف.

نعم، الوقوف في الصَّفِّ والجهاد في سبيل الله شرف لا يناله إلا من يستحقُّه، وهؤلاء لا ينبغي أن يُحزَن لقعودهم، بل هم -كما قال الله فيهم-: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} [سورة التوبة: ٤٧]، هؤلاء لا تحزنْ لقعودهم، هؤلاء لا تحزن لأنَّك كنت تحسن الظَّنَّ فيهم وتظنهم من المجاهدين، من المحبِّين للجهاد، من الذين يريدون إعلاء كلمة الله لتكون هي العليا، هؤلاء أصحاب مصالح، هؤلاء يريدون المُلْكَ {أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ}.

إذن، وهنا فائدة هامَّة -أخي الكريم- وهي أنَّ رضا الله -عز وجل- لا يُنال بالكلام، وإنَّما لا بدَّ من الابتلاء والتَّمحيص؛ قال -تعالى-: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا

يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [سورة العنكبوت]، فالعبرة ليست بالكلام وإنَّما بالفعل.

فاعلم يا من وفَّقك الله إلى الهجرة والجهاد في سبيل الله أنَّ الله مبتليك، نعم، إنَّ الله مبتليك لا محالة، فأرِ اللهَ من نفسك ما يرضيه، وكن كأنس بن النَّضر -رضي الله عنه- حينما أقسم للنَّبي ﷺ أن يُريَ الله ما يصنع إنْ وفَّقه لغزو الكفَّار والجهادِ بعد أنْ غاب عن غزوة بدر.

والقصَّة يروِيها لنا ابن أخيه أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: "غاب عمِّي أنسُ بن النَّضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أوَّل قتال قاتلتَ المشركين، لئنِ اللهُ أشهدني قتال المشركين؛ ليرينَّ اللهُ ما أصنع -كلام جميل، لكنَّ العبرة بالفعل- فلمَّا كان يومُ أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إنِّي أعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء -يعني أصحابَه- وأبرأ إليك ممَّا صنع هؤلاء -يعني المشركين- ثم تقدَّم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنَّة وربِّ النَّضر، إنِّي أجد ريحها من دون أحد"، الله أكبر! قال سعد: "فما استطعتُ -يا رسول الله- ما صنع"، قال أنس: "فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسَّيف أو طعنةً برمح أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قُتِل وقد مثَّل به المشركون، فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنَّا نرى أو نظنُّ أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه، قال -تعالى-: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [سورة الأحزاب:٢٣]".

نعم، من المؤمنين رجال، فكن من هؤلاء الرِّجال، كن رجل حق، واصدق الله -عز وجل- فيما عاهدتَه عليه على الهجرةِ والجهادِ في سبيل الله، ولا تلقِ سلاحك حتى تلقى الله -عز وجل- شهيدًا أو منتصرًا، والله -عز وجل- لا ينصر إلا الصَّادقين.

أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا لسان صدق وأن يحشرنا مع الصَّادقين؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وفي هذا القدر كفاية، ونكمل -إن شاء الله تعالى- القصَّة في لقاء آخر وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته.

الحلقة ٥: قصة طالوت وجالوت (٢)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقةٍ جديدةٍ من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، ونستكمل ما بدأناه من قصَّة طالوت وجالوت.

وملخَّص ما ذكرناه في الحلقة الماضية؛ أنَّ قومًا من بني إسرائيل أُخرِجوا من ديارهم وأبنائهم وذاقوا ذلَّ الهزيمة، فاشتاقوا للنَّصر والتَّمكين، ورغبوا في رفع راية الجهاد في سبيل الله، فذهبوا إلى نبيٍّ لهم يسألونه أن يختار لهم أيَّ ملك، حتى يتوحَّدوا خلفه ويقاتلوا الكفَّار ويجاهدوا في سبيل الله.

ولعلم هذا النبيِّ الكريم -عليه السَّلام- بحال قومه، ولعلمه بأنَّ الجهاد فريضة فاضحة كاشفة ممحِّصة، ولخوفه أن يكون طلبهم هذا ليس خالصًا لله؛ أراد أن يتثبَّت منهم، فقال: {هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا}، فاستنكروا ذلك أشدَّ الاستنكار، فقالوا: {وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا}.

فلمَّا فتح الله لهم باب الجهاد ويسَّره؛ إذا فريقٌ منهم يتقاعس ويقعد عن الجهاد بلا سبب معلوم، ثمَّ لمَّا اختار الله لهم الملك -وهو طالوت رحمه الله-؛ اعترض أقوام على طالوت، فقالوا: {أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ}، ففضح الله نواياهم وكشف خبيئتهم، فعلم أنَّهم ما أرادوا من الجهاد إلا الرِّياسة والزَّعامة ليس أكثر.

وبعد أن بيَّن لهم نبيُّهم -عليه السلام- سبب اختيار الله له وتفضيله عليهم -وهو أنَّه أكثر منهم علمًا وأكثر قوَّةً وبأسًا- وذكَّرهم أنَّهم عبيد لله لا خيار لهم، {وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن

يَشَاءُ}، وهو -عز وجل- أوسع منهم علمًا وبصيرةً؛ أعرض أقوام كذلك، فاضطُرَّ نبيُّهم إلى أن يُعضِّد هذا الملك بآية من آيات الله -عز وجل- ليذعنوا له وينصاعوا، فكانت علامة ملكه أن أتاهم التَّابوت الذي أُخِذَ منهم بعد هزيمتهم، والذي فيه بعض ممتلكات نبيِّ الله موسى وهارون -عليهما السلام- كانوا ورثوها بعدهم، فأتاهم هذا التَّابوت بدون قتال ولا حرب تحمله الملائكة.

وهنا انصاع أقوامٌ من المؤمنين، وكانت تلك العلامة تسكينًا لقلوبهم، بينما أعرض آخرون وأبوا إلا القعود، ثمَّ لمَّا تجهَّز القوم للجهاد في سبيل الله، وبدأت مسيرة الجيش إلى المعركة؛ أراد الله -عز وجل- أن يمحِّصهم مرَّةً أخرى، فأرسل رسالةً إلى ملكهم طالوت -رحمه الله- من خلال نبيِّهم، فقال -تعالى-: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)} [سورة البقرة].

ومرَّة أخرى؛ ينقِّي الله صفوف المجاهدين، فيُخرِج منهم من ليس منهم، ومن لا يستحقُّ شرف الجهاد في سبيله -عز وجل-، يُخرِج منهم المخذِّلين الذين لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، فيبتلي الله -عز وجل- جلدهم على الجهاد والقتال، فيخبرهم ملكهم طالوت -رحمه الله- أنَّه مع شدَّة عطشكم؛ فسيختبر الله جلدكم ويبتليكم بنهر عذب، فمن شرب منه فليرجع، ولا يجاهد معنا إلا من لم يشرب منه إلا غرفةً واحدةً بيده.

وهنا فائدة هامَّة، وهي أنَّه على الأمير أن لا يُترِف جنوده وأن يدرِّبهم على قسوة العيش، فيضيِّق عليهم في الطَّعام والشَّراب والمسكن من حين لآخر؛ ليكون لهم جلد على القتال، وعلى الجنود أن يتفهَّموا أنَّ ذلك لمصلحتهم، فلا يتسخَّطوا من ذلك الأمر، ولكن انتبه -أخي

الأمير- فعليك كذلك ألَّا تضغط على جنودك بما هو فوق طاقتهم، عليك أن تجعل لهم متنفسًا كما فعل طالوت -رحمه الله- فسمح بغرفة ماء واحدة حتى لا يهلكوا.

فوازن -أخي الأمير- بين الأمرين، فلا تكن عطوفًا رقيقًا بجنودك بالقدر الذي يفسدهم، ولا تكن قاسيًا عليهم بالقدر الذي يهلكهم؛ فإذا أردتَ أن تطاع؛ فأمرْ بالمستطاع.

وفائدة أخرى؛ وهي أنَّ طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه ممَّا هو من طاعة الله -عز وجل- هو شرط من شروط النَّصر واستقامة الأمر؛ ولذلك الرُّماة في أحد لمَّا عصوا أمر النبي ﷺ كان سببًا في الهزيمة؛ ولذلك كان لا بدَّ من تجريد الجيش من هؤلاء المنهزمين، وهؤلاء العُصاة قبل دخول المعركة؛ لأنَّه لو دخل بهم المعركة فسيكونون من أول الفارّين، وسيشيعون روح الهزيمة في بقيَّة الجيش؛ فلَأَنْ يكونوا قلةً ثابتين أحسن من كثرة ينهزم أكثرهم فيتبعهم البقيَّة؛ وإذا صارت هزيمة صارت فوضى، وإذا صارت فوضى ما عاد من الممكن ترتيب الصُّفوف ولا توزيع الجيش ولا المقاومة.

ولذلك كان من الحكمة أن يقول: {فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي}، أي: فليخرجْ عني وعن جيشي، لا أريده أن يقاتل معي؛ ولذلك كان النبي ﷺ يأخذ العهد عليهم أن يطيعوه في منشطهم ومكرههم؛ ولذلك كان لابدَّ أن يُطاعَ القائد أو الأمير في طاعة الله -عز وجل-، قال -تعالى-: {فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

{فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ}، فهؤلاء لم يصبروا على عطش ساعة، فأنَّى لهم أن يصبروا على أهوال القتال في ميادين المعارك؟! أنَّى لهم أن يصبروا على حزِّ الغلاصم ومتون الصَّوارم؟! فشرب أكثر القوم إلا القليل منهم.

وهنا فائدة هامَّة، وهي أنَّه على الأمير ألَّا يغترَّ بكثرة جنوده، وأن يبتليهم ويصفِّيهم وينتخب منهم مَن هم أهلٌ للقتال، ولا يزيد أعدادهم بما لا يزيدهم إلا أذًى وخبالًا، وعليه

ألَّا يحزن من قلَّة أعدادهم؛ فـ{كَم مِن فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثيرَةً بِإِذنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصّابِرينَ}.

فيا أيُّها الأمير ويا أيُّها الجنود، لا تحزنوا أنَّ من صبر وجَلَدَ وبقي معكم بعد هذه الاختبارات وهذه التَّصفية؛ هم القليل، فحسبكم أنَّ هذا القليل من الصَّابرين، الله معهم، ومن يكن الله معه فلا غالب له.

وفي الآية دليل على مذهب أهل السُّنة والجماعة من أنَّ الإيمان يزيد وينقص، إذ أنَّ الله -عز وجل- وصف هذه الفئة كلَّها بالإيمان، حتى التي قالت: {لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}، بينما ثبَّت الله فئةً أخرى فذكَّرت إخوانها بأنَّ العبرة ليست بالعدد ولا بالقوَّة، وإنَّما بمعيَّة الله لهم وإلهامه لهم بالصَّبر.

وهنا فائدة هامَّة جدًّا، وهي أنَّ على الجنود أن يقوِّي بعضهم بعضًا، فيثبِّت الثَّابت منهم المرتجف، ويقوِّي القويُّ منهم الضَّعيف؛ فإنَّ ذلك من أسباب النَّصر وأسباب ثبات الجيش كله، بل إنَّك -أخي المجاهد- لو وجدتَ في نفسك ارتجافًا وضعفًا؛ فقم وذكِّر إخوانَك بالله وبمعيَّته للمؤمنين، وبما يدَّخره لهم من جنات ونعيم مقيم؛ فإنَّك -والله- ستجد أنَّ السَّكينة قد نزلت على قلبك، وقد تقوَّى قلبك بهذا الكلام، وهذه من بركات الدَّعوة وأسرارها التي جعلها الله فيها.

نعم، إنَّ الله اصطفاك -أيُّها المجاهد- لتعلي كلمة الله -عز وجل-، فاشكر الله لهذه النِّعمة ولهذا الاصطفاء؛ فإنَّ الله لا ينصر إلا عباده المخلصين الذين اصطفاهم لهذا الشَّرف العظيم، وهو شرف الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله لتكون هي العليا، وإقامة شرعه في الأرض، هذا شرف عظيم واصطفاء من الله -عز وجل- لهذا المجاهد.

قال -تعالى-: {فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ} [سورة البقرة: ٢٤٩]، في صحيح البخاريِّ عن البراء بن عازب -رضي الله عنه- قال: "كنَّا أصحاب محمَّد ﷺ نتحدَّث أنَّ عدَّة أصحاب بدر على عدَّة أصحاب طالوت الذين

جاوزوا معه النَّهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمئة"، فهذه هي عدَّة القوم الذين جاوزوا النَّهر مع طالوت -رحمه الله-، عدد قليل لكنَّ الله معهم، وهكذا اصطفى الله -عز وجل- هذه الفئة للجهاد في سبيله ولإعلاء كلمته.

قال -تعالى-: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠)} [سورة البقرة]، لمَّا برزوا لجالوت وجنوده، وأوشك القتال على البدء؛ {قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}، وهنا فائدة هامَّة، وهي قِيمَةُ اللُّجوء إلى الله ودعائه عند لقاء الكفَّار؛ قال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)} [سورة الأنفال].

وبما أنَّ الصَّبر والثَّبات من الله؛ فوجب على المجاهدين الإكثار من الدُّعاء قبل القتال وعند لقاء الأعداء؛ ليلهمهم الصَّبر والثَّبات؛ لذا قالوا: {أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أي: صبَّ علينا منه قدرًا عظيمًا يشملنا ويعُمُّنا، فنحن أحوج ما نكون إليه في هذه السَّاعة؛ ولذلك فبعد أن سألوه -عز وجل- ودعوه بهذا الدُّعاء، قال -تعالى-: {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ} [سورة البقرة: ٢٥٠]، فجاءت الفاء الدَّالة على سرعة الإجابة.

وفائدة أخرى هي أنَّ الإيمان في المعركة هو المرجِّح لكفَّة النَّصر، حتَّى وإنْ فاق الكفَّار المسلمين عدَّةً وعتادًا وقوَّةً في الجسم؛ قال -تعالى-: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ} [سورة الحج: ٤٠]، فمن ينصرِ الله، فيؤمن بالله، ويطعِ الله -عز وجل- فيمتثل أوامره وينتهِ بنواهيه؛ فكأنما نصره في نفسه، لينصرنَّه الله -عز وجل-، وقال -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [سورة النحل: ١٢٨]؛ فمعيَّة الله للمتَّقين ومعيَّة الله للمحسنين.

وكان أبو الدَّرداء -رضي الله عنه- يقول: "إنَّما تقاتلون بأعمالكم" أي: تُنصَرون بصالح أعمالكم، قال -تعالى-: {إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧)} [سورة محمد]، فإذا

كانت الأعمال فاسدةً، والصَّبر قليلًا، والتَّوكل ضعيفًا، والتَّقوى زائلةً؛ فلا سبيل إلى النَّصر البتة، ولا يعرف النَّصر من لم ينصر الله في نفسه.

أسأل الله -تعالى- أن يُفرِغ علينا صبرًا، ويثبِّت أقدامنا، وينصرنا على القوم الكافرين مِن التَّحالف الصَّليبي ومَن عاونهم؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- وقصَّة جديدة من قصص بني إسرائيل، وحلقةٍ جديدةٍ من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته.

الحلقة ٦: قصة القوم الذين أبوا الجهاد

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة في غاية الأهميَّة لشدَّة تشابهها بواقعنا المعاصر، بل هي قصَّة تكرَّرت في أكثرَ من حقبة من حقب التَّاريخ الإسلامي، نحن اليوم على موعد مع قصَّة قوم أهلك الله عدوَّهم واستخلفهم في الأرض لينظر كيف يفعلون، فبدلًا من أن يرفعوا راية الجهاد والتَّضحية والفداء لتكون كلمة الله هي العليا؛ ضلُّوا الطَّريق وارتدُّوا على أدبارهم، واختاروا طريق السِّلمية، ونادوا بالتدرُّج في الأمر حتى يستطيعوا أن يهزموا عدوَّهم.

وتملَّكتهم روح الهزيمة، فصوَّروا عدوَّهم بالصُّورة الجبَّارة التي لا تُقهَر، حتى أبوا أن يستجيبوا لربهم ولرسوله الذي يأمرهم بالجهاد في سبيله، وأبوا إلا القعود والنُّكوص على الأعقاب عن أمر الله -عز وجل-، فانقلبوا خاسرين وأذلَّهم الله، فكان قعودهم عن الجهاد هو القاصمة التي قصمت ظهر خيريَّتهم فسُلِبَت منهم، وانقلب حالهم من {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} إلى {مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}.

قال -تعالى-: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)} [سورة المائدة].

ولعلك -أخي المستمع الكريم- تلمح من عبارات نبي الله موسى -عليه السلام- إشفاقَه وحرصَه على قومه من أن يتردَّدوا وينكصوا على أعقابهم؛ وذلك لأنه جرَّبهم من قبل في مواطن كثيرة، فجرَّبهم لما أهلك الله عدوَّهم فأغرقه، ونجَّاهم وخلَّصهم من استعباده لهم، وشقَّ لهم البحر فجعله فرقًا كلُّ فرق كالطَّود العظيم، وقبل أن تجفَّ أقدامهم من ماء البحر؛ إذا بهم يمرُّون على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: {اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}.

وجرَّبهم حينما ذهب لميقات ربه، فرجع فإذا هم قد اتَّخذوا العجل الذي صنعه لهم السَّامري، وقد جرَّبهم حينما فجَّر لهم من الصَّخر ينابيع في جوف الصَّحراء، وأنزل الله عليهم المنَّ والسَّلوى، فإذا هم يشتهون الأطعمة التي اعتادوها في مصر، أرضِ الذُّل والهوان ودار الكفر في ذاك الوقت، فطلبوا بقلها وقثَّاءها وفومها وعدسها وبصلها، ولم يصبروا عمَّا ألفوا من طعام في سبيل العزَّة والخلاص، وفي سبيل الهدف الأسمى الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتباطؤون ويتلكَّؤون فيه، وجرَّبهم حينما أمرهم بذبح البقرة، فتلكَّؤوا في امتثال أمر الله وتباطؤوا.

لقد جرَّبهم في مواطن كثيرة طوال الطَّريق الطَّويل، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدَّسة، أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا، الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكًا، وأن يبعث من بينهم الأنبياءَ فيها ليظلُّوا في رعاية الله.

فأخذ -عليه السلام- يذكِّرهم بنعمة الله عليهم، فقد فضَّلهم على العالمين واختصَّهم بما لم يختصَّ أحدًا من قبلهم، فجعل النبوَّة فيهم وفضَّلهم بالرِّسالات، فلم يبعث الله في أمَّة من الأمم من الأنبياء مثل ما بعث في بني إسرائيل، ثمَّ بيَّن لهم نعمةً أخرى من نعم الله عليهم، وهي أنَّ الله جعلهم ملوكًا، أي: أحرارًا يملكون أنفسهم وأموالهم، ويملكون المساكن ويستعملون الخدم، بعد أن كانوا عبيدًا مستذلِّين لفرعون وجنوده، فجعلهم أحرارًا بعد أن كانوا عبيدًا.

{وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} أي: مِن أنواع الإنعام والإكرام؛ مِن نجاتكم من فرعون بعد أن كان يسومكم سوء العذاب، وإهلاكه بالغرق في البحر، وفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوى، ونحوها من الآيات والبيِّنات والنِّعم السَّابغات.

وهنا فائدة هامَّة، وهي أنَّه على الأمير أن يحفِّز جنوده قبل المعركة؛ وذلك بأن يذكِّرهم بفضل الله ونعمه عليهم، فيذكِّرهم بنعمه عليهم بتوفيقه لهم بمعرفة التَّوحيد والمنهج الصَّحيح، واصطفائه لهم بالجهاد، وأن يحملوا على عاتقهم مسؤولية كسر شوكة الكافرين وإقامة الدِّين وشرعه -عز وجل- في الأرض.

ثمَّ كيف أنَّ الله منَّ عليهم وأنعم عليهم بالهجرة، فصاروا ملوكًا بعد أن كانوا مستذلِّين في بلاد الطَّواغيت، فلا يستطيعون إظهار أبسط شعائر الدِّين، بعد أن كان هذا حالهم، منَّ الله عليهم وهاجروا إلى دولة الإسلام، فصاروا ملوكًا بعد أن كانوا مستذلِّين.

ثمَّ بعد أن ذكَّرهم نبيُّ الله موسى -عليه السلام- بفضل الله ونعمه عليهم؛ حرَّضهم على الجهاد في سبيل الله بقتال المشركين من الكنعانيِّين أو العماليق الذين احتلُّوا الأرض المقدَّسة، وهي أرض بيت المقدس، وقيل: أرض الشَّام، وهي الأرض التي كتبها لهم ووعدهم إيَّاها أن يفتحها عليهم إن استجابوا لله -عز وجل-، وإن أطاعوه وجاهدوا في سبيله ورفعوا راية الجهاد.

إلا أنَّهم عموا وصمُّوا عن نعم الله -عز وجل- لهم، ثمَّ عموا وصمُّوا عن أمر الله لهم بالجهاد، وآثروا الرَّاحة والدَّعة ولو مع الذُّل والهوان، وأبوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عزَّتهم وكرامتهم، وجبنوا عن الجهاد في سبيل الله، وأبوا إلا أن يرتدُّوا على أدبارهم وينكصوا على أعقابهم، وأرادوا النَّصر الرَّخيص الذي لا ثمن له ولا جهد فيه، فقالوا: {إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}.

سبحان الله! ما أشبه الليلة بالبارحة! مكَّن الله أقوامًا من المسلمين، فأهلك عدوَّهم وفتح لهم باب الجهاد لينظر كيف يفعلون، فإذا بهم ينكصون على أعقابهم ويضلُّون

الطَّريق، فبدلًا من رفع راية الجهاد في وجوه الطَّواغيت وجنودهم؛ رفعوا راية السِّلميَّة وراية الدِّيمقراطيَّة الكافرة، فلمَّا تقول لهم: لِمَ لا تجاهدون في سبيل الله؟ لِمَ لا تعلنونها صريحةً أنَّ هؤلاء الطَّواغيت وجيوشهم كفَّار كفروا بالله -عز وجل- وجهادهم واجب على كل مسلم؟ فإذا بهم يقولون لك: "أنت لا تستطيع أن تهزم أمريكا، لا تستطيع أن تواجه الشَّرق والغرب، لا بدَّ من التدرُّج، وهذا من مصلحة الدَّعوة، وهذا من السِّياسة الشَّرعيَّة، لا بدَّ من التَّمكُّن أوَّلًا"، وكأنِّي بهم لسانُ حالهم يقول: {إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ}.

قال -تعالى-: {قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)} [سورة المائدة]، وهذان الرَّجلان هما موسى وأخوه هارون -عليهما السَّلام- على الصَّحيح.

وهنا تبرز فائدة هامَّة، وهي قيمة الإيمان في تحقيق النَّصر وفي ثبات القلب؛ فالمجاهد الذي يواظب على الطَّاعات، ويجتنب المعاصي، وما يُغضِب اللهَ -عز وجل- خوفًا من الله؛ فإنَّه يهون في عينه كلُّ مخلوق، فلا يتأثَّر بالمؤثرات الماديَّة من قوَّة الأعداء أو عددهم أو عتادهم، بخلاف ضعاف الإيمان؛ فإنهم يفزعون ويهلعون وتهتزُّ قلوبهم إذا علموا أنَّ أعداءهم قد حشدوا لهم أضعاف أضعاف أعدادهم، أو أنَّهم قد حشدوا لهم أحدث الطَّائرات وأحدث الآليات وأقواها، والعدَّة والعتاد، أمَّا من خاف الله -عز وجل-؛ فكل هذا يهون في نظره.

فعلى المجاهد ألَّا يركن إلى جهاده، بل عليه أن يجتهد في الطَّاعات على الوجه الذي يحبُّه الله -تعالى- ويكثر من النَّوافل حتى تتحقَّق عظمة الله -عز وجل- ومهابته وخشيته في قلبه، حينئذ يكون النَّصر؛ لأنَّ من كان هذا حاله؛ فإنَّه يرى بنور الله، كما أخبر الله -تعالى- في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاريُّ في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ: {مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى

أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ)).

الله أكبر! فمن كان هذا حاله؛ أنَّى له أن يُغلَب؟!

وقوله -تعالى-: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} [سورة المائدة: ٢٣]؛ فيه فائدة أخرى، وهي أنَّ الهجوم على الأعداء في عقر ديارهم أدعى لتحقيق النَّصر، فمتى دخل المجاهدون على الكفَّار في عقر دارهم؛ انكسرت قلوبهم أيِ الكفَّار، بقدر ما تتقوَّى قلوب المجاهدين، وشعر الكفَّار بالهزيمة في أرواحهم، فتكون الغلبة للمؤمنين على الكافرين.

وقال -تعالى-: {وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)} [سورة المائدة]، فعلى الله وحده يتوكَّل المؤمن، وهذه هي خاصِّيَّة الإيمان وعلامته، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه، ولكنَّ من انتكس قلبه واتبع هواه؛ أنَّى له أن يفقه هذه الأمور؟ فأصحاب الأهواء لا يرون الحقَّ إلا إذا وافق هواهم، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ كما عند مسلم في صحيحه من حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ).

فهذا هو حال من اتَّبع هواه؛ فإنَّه أصمُّ وأعمى، لا يسمع الآيات البيِّنات ولا يرى العلامات الواضحات؛ فبعد كل هذا التَّحفيز وهذا التَّحريض من نبيِّ الله موسى -عليه السلام- كان جوابهم القبيح الذي لا يخلو من سوء أدب مع الله ورسوله، {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَاۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}.

وهكذا غلبهم جبنهم، وفزعوا قلوبهم على أنفسهم، فأعرضوا عن الجهاد، بل تمكَّن الهوى من قلوبهم حتَّى صاروا لا يخجلون من ذنبهم ومن قعودهم عن الجهاد، بل أخذوا يسخرون ويطعنون في المجاهدين، {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، فليس بربِّهم إذا كانت ربوبيَّته ستكلِّفهم القتال، {إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، لسان حالهم: "لا نريد ملكًا ولا نريد عزًّا ولا نريد أرض الميعاد إذا كان ذلك ثمنه حياتنا ولقاء الجبَّارين"، هكذا في وقاحة وسفاهة، يعجز اللِّسان عن وصفها، يعني: ما يكفيكم أنَّكم قعدتم عن الجهاد ذنبًا وإثمًا مبينًا، فتزيدون هذا الذَّنب أنَّكم تطعنون في المجاهدين وتسخرون منهم؟! فهؤلاء يقولون: خوارج! وهؤلاء يقولون: عملاء! وهؤلاء يسخرون بتحريف اسمهم! وهؤلاء يرمونهم بالأكاذيب!

يا قوم، أما تستحون؟! أما تستحون أنَّكم قعدتم عن الجهاد، وركنتم إلى الطَّواغيت، وسكتُّم عن الشِّرك والكفر؟! فلا نرى رفساتكم ولا نسمع نهيقكم إلا على المجاهدين، إذا فعل الكفَّار بالمسلمين الأهوال؛ ابتلعتم ألسنتكم، وإذا انتقم المجاهدون للمسلمين؛ سلقتموهم بألسنة حداد أشحَّة على الخير، تسخرون من المجاهدين وتستهزئون بهم بعد أن قعدتم عن الجهاد؟! سبحان الله! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وهنا لم يجد موسى -عليه السلام- إلا ربَّه ليشتكي إليه ويبثَّ همومه إليه؛ فقال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيفَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}، يا لها من عبارات! يا له من دعاء! {إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي}، دعوة تستشعر في كلماتها بلهيبِ حزنٍ يعصر قلبك، ورنينِ ألمٍ يجرح فؤادك، وكذلك تشعر فيها بالمفاصلة وكأنَّها كانت فرصتهم الأخيرة بعد هذه الرِّحلة الطَّويلة خروجًا من مصر وفرعون وجنوده، ثم مسلسل العصيان والفسوق الذي تَحمَّله موسى -عليه السلام- من أجل هذه الغاية التي خرجوا من أجلها.

فلما نكصوا على أعقابهم وهم على أبواب بيت المقدس، وهم على أبواب الأرض المقدَّسة، وأبوا إلا القعود عن الجهاد؛ دعا عليهم، وحكم عليهم بالفسوق، نعم؛ فالجهاد الذي هو فرض عين؛ كجهاد الدَّفع والجهاد الذي يستنفر فيه الإمامُ النَّاسَ، القعود عنه

فسوق، والقاعد عنه فاسق ساقط العدالة، مردود الشَّهادة، لا يقدَّم للإمامة ولا للرِّياسة، وقد أكَّد الله -عز وجل- على حكم موسى لهم بالفسق، فقال -تعالى-: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)} [سورة المائدة].

فأكد الحكم بأنَّهم -أي القاعدين عن الجهاد- فاسقون، وعاقبهم الله -عز وجل- بالتِّيه في الأرض أربعين سنة؛ قال صاحب الظِّلال: "وهكذا أسلمهم الله -عز وجل- وهم على أبواب الأرض المقدَّسة للتِّيه، وحرَّم عليهم الأرض التي كتبها لهم، والأرجح أنَّه حرَّمها على هذا الجيل منهم حتَّى تنبت نابتة جديدة، وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل، جيل يعتبر بالدَّرس وينشأ في خشونة الصَّحراء وحرِّيَّتها، صلب العود، جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذُّل والاستعباد والطُّغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل، والذُّلُّ والاستعباد والطُّغيان يُفسِد فطرة الأفراد كما يفسد فطرة الشُّعوب".

ولقد وعى المسلمون هذا الدَّرس ممَّا قصَّه الله عليهم من القصص؛ فحين واجهوا الشِّدَّة -وهم قلَّة- أمام نفير قريش في غزوة بدر؛ قالوا لنبيِّهم ﷺ: "إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، لكن نقول: اذهب أنت وربُّك فقاتلا، فإنَّنا معكما مقاتلون"، الله أكبر!

وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التَّربية بالقصص عامَّةً، وبعض جوانب حكمة الله -عز وجل- في تفصيل قصَّة بني إسرائيل.

نسأل الله -عز وجل- أن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وأن يمتِّعنا بالجهاد ما حيينا؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- وقصَّةٍ جديدة مِن قصص بني إسرائيل، وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته.

الحلقة ٧: قصة أصحاب السبت

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقةٍ جديدةٍ من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة غاية في الغرابة، على موعد مع قصَّة قوم ابتلاهم الله ببلاء عجيب، وذلك لتنطُّعهم وتقديمهم رأيَهم على شرع الله -عز وجل- فابتلاهم الله بلاءً عظيمًا، فتلاعبوا بأوامر الله -عز وجل- وتحايلوا على شرع الله، ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين؛ قال -تعالى-: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)} [سورة الأعراف].

فهذه قرية كانت على ساحل البحر، وقيل: إنهم سألوا نبيهم أن يجعل لهم يومًا في الأسبوع يعظِّمونه ويكون لهم عيدًا، ويحرِّم الله عليهم فيه العمل ليتفرَّغوا فيه لعبادة الله -عز وجل-، فافترض الله عليهم يوم الجمعة، فأبوا واختاروا السَّبت مكانه متعلِّلين بأنَّ الله لم يخلق فيه شيئًا؛ لأنَّه بدأ الخلق يوم الأحد وفرغ يوم الجمعة، وهذا من كذبهم وتنطُّعهم وضلالهم وتقديم آرائهم على شرع الله -عز وجل-.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ في الصَّحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: (نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ -أي: يوم الجمعة- فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ اليَهُودُ غَدًا -أي السَّبت- وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ -أي الأحد-).

ثم إنَّ هؤلاء القوم ابتلاهم الله -عز وجل- فحرَّم عليهم العمل في ذلك اليوم استجابةً لطلبهم، ضيَّقوا على أنفسهم فضيَّق الله عليهم، ثمَّ اختبر صدقَهم وابتلاهم ببلاء عجيب؛ وذلك أنَّه إذا كان يوم السَّبت إذا بالحيتان -أيِ الأسماك- تأتيهم شُرَّعًا، أي: تسبح بغزارة على سطح الماء، حتى قيل: إنَّه لو مدَّ أحدهم يده لاصطادها، ثمَّ إذا بها باقي أيَّام الأسبوع لا يجدون منها شيئًا.

قال -تعالى-: {كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ (١٦٣)} [سورة الأعراف] أي: كان هذا البلاء والتَّضييق عليهم بسبب فسوقهم، وهو أنَّ الأصل أنَّ الحلال كثير والحرام قليل، فمع عناد بني إسرائيل، إلا أنَّه -عز وجل- لم يحرِّم عليهم العمل إلا في يوم واحد من أيَّام الأسبوع، فستَّة أيام العملُ فيها حلال، ويوم واحد العملُ فيه محرَّم عليهم، وكذلك لو تأمَّلت في كل جوانب الشَّريعة، ستجد أنَّ الحلال أكثر بكثير من الحرام.

فمثلًا؛ الأصل في المطعومات الحلُّ، وفي الأنعام أحلَّها الله لنا إلا الميتة والدَّم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به، وكذلك جميع المشروبات حلال إلا ما كان مسكرًا، وهكذا فالحلال كثير والحرام قليل، ومع هذا؛ فإنَّ الشَّيطان يزيِّن لبعض النَّاس هذا القليل، فلا يرون غيره فيقعون في الحرام مع قلَّته، فيمحق الله بركة الحلال الكثير بسبب إعراضهم وجحودهم عن أوامر الله -عز وجل- قال -تعالى-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)} [سورة الأعراف]، فإنَّما يضيِّق الله على النَّاس بما كسبت أيديهم، ولو آمنوا واتَّقوا لعمَّتهم البركة، وعمَّهم الرِّزق من السَّماء والأرض.

أمَّا من تعنَّت وأعرض عن أوامر الله؛ فليس له إلا ضنك المعيشة، كما أخبر الله -تعالى- في كتابه فقال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)} [سورة طه]، وهؤلاء القوم بدلًا من أن يجأروا إلى الله -تعالى- ليرفع عنهم هذا البلاء، ويفرِّج عنهم هذا الضِّيق؛ تحايلوا على أمر الله -عز وجل-، فقيل: إنَّ أحدهم ربط سمكةً من ذيلها يوم السَّبت ثمَّ اصطادها يوم الأحد، وقيل: إنَّهم حفروا حُفَرًا عميقةً، وجعلوا لها

جداول يفتحونها يوم السَّبت، فيندفع الماء بها بما فيه من حيتان، حتى لا تستطيع الحيتان الرُّجوع، ثمَّ يصطادونها يوم الأحد.

فأنكر القسم الأوَّل على الثَّاني أمرَهم بالمعروف ونهيَهم عن المنكر مع علمهم أنَّهم لا يأتمرون ولا ينتهون، فقالوا لهم: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}، {مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} يا لها من إجابة بليغة! {مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ} أي: حتى نكون أعذرنا إلى الله -عز وجل-.

وهنا فائدة هامَّة، وهي أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فيه نجاة المحتسب وإن لم يرتدع المحتسَبُ عليه؛ قال ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)[1]، وفي رواية: (وَلَيسَ وَرَاءَ ذلِكَ مثقال حبَّة من خردل من إيمان)[2]، فالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وإنكار المنكر يزيد الإيمان في القلب، وبالعكس؛ السُّكوت عليه يضعف الإيمان بالقلب، فيَظهَر ذلك على الجوارح والأركان.

وإنَّما هلاك الأمم بالسُّكوت على المنكرات، فمن أسباب هلاك أمَّة بني إسرائيل وانقلاب حالهم من {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} إلى {مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ}؛ أنَّهم كانوا لا يتناهون عن المنكر، كما أخبر الله -تعالى- في كتابه: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)} [سورة المائدة]، فكان تركهم للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر سببًا في لعنة الله لهم.

فكانوا في أوَّل الأمر ينكرون على العصاة، ثمَّ يسكتون عنهم، ثمَّ يؤاكلونهم ويجالسونهم، ثمَّ يرضون عنهم، ثمَّ يتولَّونهم، وهكذا، فإنَّ للشَّيطان خطوات، وإنَّ الذَّنب يجرُّ وراءه

---

[1] رواه مسلم من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[2] رواه مسلم من طريق ابن مسعود رضي الله عنه.

الذَّنب، حتى نزل عليهم سخط الله -عز وجل- وعذَّبهم، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أمَّته من هذا، وبيَّن أنَّ نجاة الأمَّة تكون بإقامة هذه الشَّعيرة التي هي من أعظم شعائر الإسلام، ألا وهي الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

فقال ﷺ كما في الصَّحيح من حديث النُّعمان بن بشير -رضي الله عنهما- عن النَّبي ﷺ قال: (مَثَلُ الْقَائِمِ على حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إذا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا على مَنْ فَوْقَهُمْ، فقالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا)[1].

المهمُّ أنَّهم تحايلوا على شرع الله -عز وجل- وبدأت رائحة الأسماك تفوح، فأنكر عليهم الصَّالحون وزجروهم وتوعَّدوهم: إن لم ينتهوا يوشك أن ينزل عليهم عقابًا من السَّماء، إلا أنَّهم لم ينتهوا ولم ينزجروا عن فعلهم، ثم لمَّا أخَّر الله عنهم العذاب وأمنوا مكر الله، أخذوا يبيعونه في الأسواق وجاهروا بمعصيتهم، فانقسم الصَّالحون إلى قسمين: قسم يئس من هؤلاء العصاة المتجرِّئين على الله وأوامر الله، فتركوا نَهْيَهم عن المنكر وأَمْرَهم بالمعروف، وقسم ظلَّ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فانظر وتأمَّل -أخي الكريم- إلى هذا المثل العجيب الدَّقيق؛ مثل القائم على حدود الله -أي الملتزم بأوامر الله ونواهيه- والواقع فيها -أي المفرِّط في أوامر الله ونواهيه- ولا يخلو مجتمع مسلم مِن كلا الجنسين، مثلهما كمثل قوم أرادوا أن يركبوا البحر بسفينة، فأجروا قرعةً بينهم، فصار نصيب القائمين على حدود الله على سطح السَّفينة، والواقعين في حدود الله في باطن السَّفينة.

فإذا أراد هؤلاء الذين هم في باطن السَّفينة أن يستقوا الماء؛ فلا بدَّ لهم أن يصعدوا إلى سطح السَّفينة ليدلوا بدلوهم، فيملؤوه بالماء، فقالوا: "لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ من فوقنا"، الله أكبر! وهذا أنَّ كل واقع في حدود الله له شبهة يزيِّنها له شيطانه ونفسه

[1] رواه البخاري.

الأمَّـارة بالسُّـوء، فهم يسـيئهم أنَّهم يمـرُّون كل حين على نصيب إخـوانهم، فيؤرِّقـونهم ويزعجـونهم، حسـنًا، ما الحلُّ إذن؟ الحلُّ أن نثقب في نصيبنا ثقبًا -خرقًا- نملأ منه الماء، الله أكبر! وأين نصيبهم هذا؟ إنَّه في باطن السَّفينة!

فلو أنَّ هؤلاء الذين على سطح السَّفينة قالوا: "وما لنا ولهم، هذا نصيبهم، هم أحرار فيه"؛ لهلكوا جميعًا؛ لأنَّهم سيغرقون السَّفينة، ولو أنَّهم أخذوا على أيديهم فمنعوهم؛ لنجوا جميعًا.

إذن؛ فالمسلمون جميعًا في مركب واحد، فلو تركنا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لعمَّ الأمَّة عذاب، ولضاعت أسباب خيريَّتها، ولكان هذا من أسباب هزيمتها؛ قال -تعالى-: {وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً} [سورة الأنفال: ٢٥]، وترك هذه الشَّعيرة من آكد أسباب الهزيمة ونزول العقاب، كما أخبر النبي ﷺ حينما قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ)[1].

ولو أنَّهم قاموا بهذه الشَّعيرة العظيمة، فأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأخذوا على أيدي المعتدين، وأطروهم على الحق أطرًا؛ لكان هذا من أسباب نصر هذه الأمَّة وأسباب خيريَّتها، وقد أكَّد الله -عز وجل- على هذه الشَّعيرة، بل قرنها بخيريَّة الأمَّة اقترانًا، فقال -عز وجل-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ} [سورة آل عمران: ١١٠].

وربط الله -عز وجل- رحمته للأمَّة بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ فقال -تعالى-: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)} [سورة التوبة].

[1] رواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن.

وربط الله -عز وجل- فلاح الأمَّة بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ فقال -عز وجل-: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)} [سورة آل عمران].

فأعظم الدُّروس المستفادة -إخوتي الكرام- من هذه القصَّة هي أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب نجاة الأمَّة ومن أسباب نصر الله للأمَّة، ودرس آخر لا يقلُّ أهميةً عن هذا الأمر، وهو أنَّ الأمَّة التي تتحايل على شرع الله أمَّة لا تستحقُّ أن تنتصر، الأمَّة التي تعطِّل حدود الله بحجَّة أنها تتدرَّج في الدَّعوة وأنَّ الناس أصبحوا غرباء عن الإسلام وأنَّ هذا الأمر قد يقلب علينا الأمم المتَّحدة ومجلس الأمن والغرب والشَّرق، الأمَّة التي تعطِّل حدود الله بهذه الحجج الواهيات؛ أمَّة لا تستحقُّ أن تنتصر، الأمَّة التي تعطِّل الحدود بحجَّة أنها في حرب وأنَّ الحدود لا تقام في دار الحرب أمَّةٌ لا تستحقُّ أن تنتصر.

سيموت أجيال ويأتي أجيال، ولن ترضى عنكم اليهود ولا النَّصارى حتى تتَّبعوا ملَّتهم، فبالله عليكم؛ متى تقيمون حدود الله؟! سيموت أجيال ويأتي أجيال وجهاد الدَّفع قائم حتى تتحرَّر بلاد المسلمين من الصِّين إلى الأندلس، والحرب دائرة ودفع الأعداء قائم، فمتى تقيمون حدود الله إذن؟! الأمَّة التي تأكل الرِّبا وقد نُهُوا عنه وتتحايل على الرِّبا أمَّة لا تستحقُّ أن تنتصر، الأمَّة التي تتلاعب بأوامر الله أمَّة لا تستحقُّ أن تنتصر.

الله -عز وجل- حرَّم على بني إسرائيل يومًا كاملًا، ولكنَّه خفَّف على هذه الأمَّة، فحرَّم عليها العمل وقت الصَّلاة فقط، فإذا برجال من أبناء هذه الأمَّة يعملون في وقت الصَّلاة، ويتركون الصَّلاة، ويهجرون المساجد، فهل هذه أمَّة تستحقُّ النصر؟! الأمَّة التي تعطِّل الجهاد في سبيل الله، وتقعد عن الجهاد في سبيل الله، وتنادي بالتدرُّج وتتلكَّأ في تلبية أمر الله -عز وجل- وتتحجَّج بمصلحة الدَّعوة، وتقف في طوابير الانتخاب؛ أمَّة تستحقُّ النَّصر؟! لا والله، إنَّ النَّصر لا يكون إلا لمن استسلم لله وحقَّق العبوديَّة لله، فالعبد لا خيار له، يأمره سيِّده حيثما شاء فيأتمر، وينهاه عمَّا شاء فينتهي.

لا تنتصر الأمَّة إلا إذا رَفَعَتْ رايةَ الجهاد في سبيل الله، وأقامت شرع الله وسلطانَه في الأرض، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر، وأخذت على يد المعتدي والظَّالم والواقع في حدود الله، نعم؛ هذه هي الأمَّة التي تستحقُّ النَّصر، هذه هي الأمَّة التي حُقَّ لها أن ينصرها الله -عز وجل- نسأل الله -عز وجل- أن يرينا الحقَّ حقًّا ويرزقنا اتِّباعه، والباطلَ باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وأن يجعلنا ممَّن يستمعون فيعملون.

ربنا اغفرْ لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبِّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين؛ إنَّك وليُّ ذلك والقادر عليه، وأنت نعم المولى ونعم النَّصير، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وإلى قصَّة جديدة -إن شاء الله تعالى- من قصص بني إسرائيل و "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته.

الحلقة ٨: قصة أصحاب الكهف (١)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة عجيبة غريبة وآية فريدة من آيات الله -عز وجل- وقصَّة هي مثار جدل على مرِّ العصور، مع قصَّة شديدة الشَّبه بواقعنا المعاصر الذي كثر فيه انحراف الناس عن دين ربِّهم، وكثر فيه جهل الناس حتى بأصول عقيدتهم، حتى صار الإسلام غريبًا، كما أخبر النبي ﷺ فيما صحَّ عنه أنه ﷺ قال: (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)[١].

إنها قصَّة شباب مؤمن، قام ليصدع بالحق في زمان صار فيه الحق غريبًا مستنكرًا، كما هو حال زماننا اليوم، كما صحَّ عن النبي ﷺ بسند حسن أنَّه ﷺ قال: (إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ)، قيل: "وما الرُّويبِضة يا رسول الله؟" قال: (السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ)[٢].

قال -تعالى-: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)} [سورة الكهف]، إنَّها قصَّة أصحاب الكهف، وقد بيَّن الله -عز وجل- أنَّها من آياته الفريدة العجيبة، وآيات الله كلها عجيبة وفريدة، وهذا دليل على عظمته -عز وجل- وملخَّص

---

[١] رواه مسلم.

[٢] رواه أحمد. قال الأرنؤوط: حديث حسن، وهذا إسنادٌ ضعيفٌ لضعف عبد الملك بن قدامة، وجهالة إسحاق بن بكر بن أبي الفرات. ورواه الحاكم من طريق آخر وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

القصَّة قد أوردها الله -عز وجل- إجمالًا في بداية حديثه عنهم، فقال -عز وجل-: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)} [سورة الكهف].

إذن؛ فهم فتية عرفوا طريق التَّوحيد في زمان كثر فيه الشِّرك، فقاموا ينكرون على قومهم ويدعونهم إلى التَّوحيد، فلما فعلوا، طغوا عليهم وتوعَّدوهم بالإيذاء، كعادة أهل الباطل في كل زمان ومكان.

سبحان الله! ما أشبه الليلة بالبارحة! هكذا الطَّواغيت في كل زمان؛ قالها آزر لإبراهيم لمَّا دعاه للتَّوحيد فقال: {قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}، قالوها لنوح -عليه السلام- فقالوا: {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}، وقالوها للوط -عليه السلام- فقالوا: {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ}، وقالوها جميعًا لأنبيائهم فقالوا: {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فهذه طبيعتهم في كل زمان ومكان؛ لا يرضون أن يكون بينهم موحدون ينكرون عليهم، يحبون أن يعيشوا في مستنقع الشِّرك والنَّجاسة دون أن ينكر عليهم أحد، تَضِيقُ صدورُهم وتؤذى أعينُهم برؤية الموحِّدين الطَّاهرين، {قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، هذه جريمتهم أنَّهم طاهرون يتطهَّرون.

فلمَّا كان هؤلاء الفتية مُستضعَفين لا حيلة لهم ولا شوكة لهم؛ لجؤوا إلى الله -عز وجل- ثمَّ إلى الكهف، وسألوه أن ينجِّيهم من قومهم الظَّالمين، فضرب الله -عز وجل- على آذانهم، فناموا في الكهف سنين معدودةً، ثمَّ بعثهم ليكونوا آية لقومهم ولمن بعدهم.

وأوَّل فائدة نقف معها في هذه القصَّة هي أهمِّية الشَّباب في بناءِ وتمكين أيِّ أمَّة، فقد أشار الله -عز وجل- إلى عمرهم، فقال: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ} [سورة الكهف:١٠]، ثم كرَّر الإشارة مرة أخرى للتَّنبيه على ذلك، فقال: {نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)} [سورة الكهف] .

وكان من الممكن أن يقول الله -عز وجل-: "إنَّهم رجال آمنوا بربِّهم وزدناهم هدى"، فهذا أنسب لسياق القصَّة من حيث المعنى الظَّاهر، فالذين يقومون فيعادون قومهم، وينذرونهم، ثمَّ يهجرون النعيم -كما قيل: إنهم كانوا أبناء ملوك- يهجرون النَّعيم ليعيشوا في الكهوف؛ هم رجال وإنْ حدثت أسنانهم، فالوصف بالرُّجولة هو أنسب لسياق المدح من حيث هذا المعنى الظَّاهر، كما وصف الله -عز وجل- المؤمنين الصَّادقين في أكثر من موضع، فقال -عز وجل-: {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)} [سورة التوبة]، وقال -عز وجل- في موضع آخر: {رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ} [سورة النور]، وفي موضع آخر قال -عز وجل-: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [سورة الأحزاب: ٢٣].

فمع كون الفاعِلِينَ لهذه الأمور كلها ليسوا فقط مَن هم في عمر الرِّجال وليسوا فقط ذكورًا، على أنَّ وصف الرُّجولة كان أنسب للمدح في هذه المواضع كلها، إذن فذكر الله لأصحاب الكهف بأنَّهم فتية لا بدَّ أنَّ فيه إشارةً لا يفوِّتها أولو الألباب الذين يخاطبهم الله -عز وجل- بهذه القصص، وكأنها إشارة إلى أنَّ البداية الحقيقيَّة للتَّمكين يكون بإنشاء جيل جديد يرضع التَّوحيد منذ نعومة أظافره، وينشَّأ على العقيدة والمنهج الصَّحيح منذ الصِّغر، حتى إذا وصل إلى الفتوَّة كان التَّمكين الفعلي.

فالشَّباب هم عمود بناء أيِّ أمَّة، فلا تجد أمَّةً منتصِرةً إلا وتجدها تعتني بشبابها، ولا تجد أمَّةً مهزومةً ضائعةً إلا وتجد شبابها ضائعين مهزومين، وتأمَّل على أكتاف مَن قامت دعوة النَّبي ﷺ؛ فهذا الأرقم بن أبي الأرقم الذي ائتمنه النبي ﷺ على الدَّعوة في مهدها، كم

كان عمره؟ كان عمره ستَّ عشرة سنة؛ وهذا أسامة بن زيد قائد الجيش الذي سيواجه أعتى قوَّة على وجه الأرض؛ كم كان عمره؟ ثماني عشرة سنة.

لمَّا كان في الأمَّة أمثال زيد بن ثابت -وهو ابن ثلاث عشرة سنة- فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم: (يَا زَيْدُ، تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ، فَإِنِّي وَاللهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي)، قال زيد: "فتعلَّمتُ له كتابهم، ما مرَّت بي خمس عشرة ليلةً حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب"[1]، ابن ثلاث عشرة سنة يتقن لغتين: العبرانيَّة والسريانيَّة في خمس عشرة ليلةً!

لما كان في الأمَّة أمثال معاذ ومعوَّذ ابني عفراءَ وعمرو بن الجموح -وهما أبناء الثَّالث والرَّابع عشرة سنة- لمَّا وقفا يوم بدر، يقول عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- كما في الصَّحيح: "بينا أنا واقف في الصَّفِّ يوم بدر، فنظرتُ عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنَّيتُ أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما فقال: يا عمِّ، يا عمِّ، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أُخبِرتُ أنَّه يسبُّ رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لَئِن رأيته لا يفارق سوادي سوادَه حتَّى يموت الأعجل منا، فتعجَّبتُ لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في النَّاس قلت: ألا إنَّ هذا صاحبكما الذي سألتماني عنه، فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه"، الله أكبر!

لمَّا كان في الأمَّة أمثال هؤلاء الفتية المؤمنين؛ انتصرت الأمَّة وعزَّت وسادتِ الأممَ جميعًا، إذن فالشَّباب هم عصب الأمَّة، وهم بوصلتها، وهم الطَّاقة الدَّافعة للأمَّة، فإن لم تُوَجَّه هذه الطَّاقة بحكمة شيوخ الأمَّة؛ ضاعت الأمَّة؛ لذا تلاحظ -أخي الكريم- كيف كان النبي ﷺ يهتمُّ بالشَّباب، فيوجِّهه ويرشده إلى الطَّريق الصَّحيح.

فها هو يرشد ابن عبَّاس -رضي الله عنهما- وهو لا يزال غلامًا صغيرًا، فيعلِّمه: (يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ.إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ،

[1] رواه أحمد وأبو داود والبخاري في تاريخه والترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ.وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)[1].

وها هو ﷺ يخصُّ الشَّباب بالنَّصيحة فيقول ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ)[2].

والسِّيرة مليئة بمثل هذا كثيرًا؛ كان شباب الصَّحابة -رضي الله عنهم- هم العمود الذي قامت على أكتافه دولة الإسلام التي قهرتِ الغربَ والشَّرقَ وأعتى قوى الكفر في الأرض: الفرسَ والرُّومَ، هم الذين فتح الله بهم البلاد.

أمَّا هؤلاء الفتية الذين لا همَّ لهم إلا أن يتابعوا الموضةَ والفاسقين والفاسقات ممَّن يسمُّونهم نجومًا وفنَّانين، الفتية الذين غُرِّبوا عن دينهم فلا يعلمون عنه إلا أقلَّ القليل، الفتية الذين تركوا ديار المسلمين ليسطو عليها الطَّواغيت وينشروا بها الفاحشة والرَّذيلة، الفتية الذين انغمسوا في الشَّهوات والملذَّات، ونسوا ما حمَّلهم الله من أمانة أشفقتْ منها السَّماوات والأرض والجبال؛ أنَّى لأمَّةٍ هؤلاءِ هم فتيانُها أن تنتصر؟! إنَّما تنتصر الأمَّة بفتية حملوا همَّ الدِّين وترعرعوا وأعينُهم نصب دينهم، يريدون إعلاء كلمته ونصرته، قد انشغلوا عن الدُّنيا وطلَّقوها ابتغاء هذا الهدف الذي تربوا عليه منذ الصِّغر، هؤلاء هم الفتية التي تنتصر بهم الأمم.

وقد رُوِيت قصَّة رمزيَّة في هذا المعنى، فقيل: إنَّ الغرب الكافر في زمان العزَّة -زمانِ الأندلس- أراد أن يحشد جنوده ليقاتل المسلمين، فأرسل الجواسيس ليتجسَّسوا على ديار المسلمين ليعرفوا أحوالهم، فدخل الجاسوسُ الأندلسَ، فإذا بغلام صغير يبكي تحت شجرة، فقال له: "يا غلام، ما يبكيك؟" قال: "يبكيني أنِّي اصطدتُ أرنبًا بسهمين"، فقال:

---

[1] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

[2] متفق عليه.

"وما في ذلك؟ ما الإشكال؟" قال: "إنَّ أبي علَّمني أنَّ سهم المؤمن لا يخطئ"، فرجع الرَّجل إلى قومه، وقال: "هؤلاء قومٌ لا يُهزَمون، هؤلاء قوم ربَّوا أبناءهم على الجهاد، هؤلاء قومٌ لا يُهزَمون"، الأمَّة التي هكذا أبناؤها لا يُهزَمون.

ثم مرَّت السِّنون والأعوام، وأراد الكفَّار أن يَحشُدوا لقتال المسلمين، فأرسلوا جواسيسهم ليتحسَّسوا أخبار المسلمين، فإذا بشابٍّ يبكي تحت شجرة، فقال له الجاسوس: "ما يبكيك؟" قال: "أبكي لفراق محبوبتي"، فرجع الجاسوس إلى قومه فرحًا وقال: "الآن الآن نغزوهم في عقر ديارهم"، وقد كان.

فهذه قصَّة رمزيَّة تبيِّن أهمَّ أسباب سقوط الأندلس، لمَّا انشغل الشَّباب عن الجهاد في سبيل الله، سقطت الأندلس، وهكذا كلُّ أمَّة لا تصلح إلا إذا صلح شبابها، {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}.

نسأل الله -عز وجل- أن يهدينا ويهدي شباب المسلمين إلى الحقِّ، ويرزقنا وإيَّاهم اتِّباعه، وأن يشرح صدور شباب الأمَّة للجهاد في سبيله، وأن يثبِّت أقدام المجاهدين، وينصرهم على القوم الكافرين؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، هو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، ونكمل -إن شاء الله تعالى- القصَّة في لقاء آخر، وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله -تعالى- وبركاته.

الحلقة ٩: قصة أصحاب الكهف (٢)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

وكنَّا قد شرعنا في الحلقة الماضية في الحديث عن قصَّة أصحاب الكهف، تلكم القصَّة العجيبة الغريبة التي هي من عجائب قدرة الله -عز وجل- والدَّالَّة على عظمته -سبحانه وتعالى-؛ قال -تعالى-: {نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)} [سورة الكهف].

فبعد أن ذكر الله -عز وجل- قصَّة هؤلاء الفتية إجمالًا، شرع في تفصيل ما أجمل من القصَّة، فقال -تعالى-: {نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ}، أي: نحن نخبرك الخبر اليقين الصَّادق عن هؤلاء الفتية.

{إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}، أي: إنَّهم فتية من الشَّباب النقيِّ الطَّاهر السَّليم الفطرة، هُدُوا بفطرتهم النَّقيَّة، فنظروا في كتاب الله المرئي وآيات الله في الكون، فانتهوا إلى نتيجة حتميَّة، وهي أنَّه يستحيل أن يكون لهذا الكون إلا إله واحد، هو الذي فطر السَّماوات والأرض، وشقَّ البحار والأنهار، وأنبت الزَّرع الذي تأكل منه الأنعام ويأكل منه الإنسان، وخلق الإنسان فسوَّاه فأحسن صورته؛ فهو وحده -سبحانه- المستحقُّ لجميع ألوان العبادة.

فاهتدوا إلى الله بآياته، كما قال الأعرابيُّ البسيط: "البعرة تدلُّ على البعير، وأثر السَّير يدلُّ على المسير، سماء ذات أبراج وأرض ذات فِجَاج، ألا يدلُّ ذلك على اللَّطيف الخبير؟!".

فتوحيد الله -عز وجل- مقروء مُشاهَد في كونه وفي كل نعمة يَنْعَمُ بها الإنسان؛ قال -تعالى-: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [سورة الذاريات]، ثمَّ إنَّ الله -عز وجل- زادهم هدى إلى هداهم، وإيمانًا إلى إيمانهم، ويقينًا إلى يقينهم، وربط على قلوبهم، فثبَّتها وقوَّاها ليقولوا في الله لا يخافون لومة لائم.

وهنا فائدة هامَّة، وهي أنَّ الهداية والثَّبات هما من الله -عز وجل-، فالله هو الذي يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، والله هو الذي يثبِّت الذين آمنوا بالقول الثَّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ويضلُّ الظَّالمين؛ فالإنسان عليه أن يطلب الهداية من الله -عز وجل- ويطلب الثَّبات من الله -سبحانه وتعالى- كما قال -تعالى- في الحديث القدسي: {يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ}[1]، فعلى كل مؤمن أن يأخذ بأسباب الهداية وأسباب الثَّبات، وأمَّا المجاهدون؛ فهم أحوج ما يكون إلى هذا الرَّبط على القلوب الذي به ينتصر المجاهدون وبه يَثبُتون في مواجهة أعدائهم؛ قال -تعالى- في ذكر غزوة بدر: {وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)} [سورة الأنفال].

فلا ينبغي أن يركن المجاهد إلى جهاده، وإنما يكثر من الطَّاعات والعبادات التي تقرِّبه إلى الله -عز وجل- وعليك -أخي المجاهد- أن تُقدِّم بين يدي المعركة صدقةً تتقرَّب بها إلى الله -عز وجل- ويثبتك بها، فقبل المعركة أكثِرْ من الطَّاعات، ولا تركنْ إلى كثرة المعارك التي خضتها، فتظنَّ أنَّه قد قوي قلبك باعتيادك المعارك، لا، اعلم -أخي الكريم- أنَّ الثَّابت من ثبته الله -عز وجل-، فأكثر من القربات يقرِّبْك، وسل اللهَ الثَّباتَ يُثبِّتْك.

واعلم أنَّ أعظم مدد يمدُّه الله إلى المجاهدين هو الرَّبط على القلوب، وهو من أعظم أسباب النَّصر، نسأل الله -عز وجل- أن يربط على قلوب المجاهدين، ويثبِّت أقدامهم، وينصرهم على القوم الكافرين.

---

[1] رواه مسلم.

ومِن الآية نستطيع أن نستخلص أسباب الرَّبط على القلوب، فهي -أوَّلًا- الإيمانُ بالله وتوحيده، إذ أنَّهم {آمَنُوا بِرَبِّهِمْ}، وثانيًا: زيادة الإخلاص لقوله -تعالى-: {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} وقولهم: {لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا}، وثالثًا: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لأنَّهم {قَامُوا فَقَالُوا}، فكان إنكارهم على قومهم سببًا في زيادة ثباتهم، ثمَّ الدُّعاء بالثَّبات؛ إذ أنَّهم لجؤوا إلى ربِّهم في كل أمرهم.

وها هم الفتية المؤمنون، بعد أن ربط الله على قلوبهم، قاموا لينكروا على قومهم متأسِّين بالموحِّدين في كل زمان، ومتأسِّين بأبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام- ومن آمن معه؛ {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}.

فلمَّا زجروهم وتوعَّدوهم بالعذاب الأليم؛ ما كان لهم حيلة ولا بدَّ من أن يفرُّوا بدينهم ويفارقوا قومهم، قال -تعالى-: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)} [سورة الكهف]، فاعتزلوا قومهم، ولجؤوا إلى الكهف ليفارقوهم.

وهنا فائدة هامَّة؛ من لم يعتزلْ ديار الكفر وقد قَدِرَ على الهجرة إلى دار الإسلام؛ فهو آثم، وقوله -تعالى-: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا} فيه بيان أنَّ رحمة الله الخاصَّة مترتِّبة على تقديم العبد -أوَّلًا- بالرُّكون إلى الله واللُّجوء والفرار إليه -عز وجل-.

فلله -عز وجل- رحمة عامَّة ورحمة خاصَّة؛ فأمَّا رحمته العامَّة فهي لجميع الخلق؛ قال ﷺ: (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تساوي عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)[1]، فهؤلاء المشركون بالله، مع شركهم ومعصيتهم لله، إلا أنَّ الله -سبحانه- يسقيهم ويطعمهم ويشفيهم ويمنع عنهم الضَّرر، وهذا من رحمته العامَّة، فهو الرَّحمن بجميع الخلق، ولو

[1] رواه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح، غريب من هذا الوجه.

شاء الله لعجَّل لهم العذاب، ولأخذهم عند أوَّل معصية، لكن من رحمته -عز وجل- أن أخَّر عليهم العذاب؛ قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْهِلُ لِلظَّالِمِ، حَتَّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)[١].

وأمَّا رحمته الخاصَّة؛ فهي لعباده المؤمنين الموحِّدين دون غيرهم، وهذه الرَّحمة مترتِّبة على فعل العبد أوَّلًا؛ فعلى العبد أن يقدِّم -أوَّلًا- ليفوز برحمة الرَّحيم -سبحانه وتعالى-، ومثال ذلك قوله -تعالى-: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)} [سورة الليل].

ومنها أيضًا قول النَّبي ﷺ: (احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ)[٢]، فهذه شروط، فمن يحفظ الله يجدْ حفظ الله، وغيرها الكثير من الآيات والأحاديث الدَّالة على ذلك، فقوله: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ} شرط وجوابه: {يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا}.

وهؤلاء الفتية قالوا ذلك لبعضهم البعض: "فطالما أنَّكم فارقتم القوم بقلوبكم، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم، فالجؤوا إلى الكهف لعبادة الله وحده، ينشرْ لكم من رحمته"، قالوا ذلك ثقةً بفضل الله -تعالى- وقوةً في رجائه لتوكُّلهم عليه -سبحانه وتعالى- {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، فأَوَوْا إلى كهفهم في حراسة ربِّهم وكفالته، لم يرهم أحد من قومهم وقد جدُّوا في طلبهم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "وعمَّ الله خبرهم كما فعل بنبيِّه محمَّد ﷺ وصاحبه الصِّديق -رضي الله عنه- حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطَّلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرُّون عليه"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وفي ذلك فائدة هامَّة -إخوتي الكرام- وهي أهمِّيَّة الثقة بالله -عز وجل- والتَّوكُّل عليه في تحقيق النَّصر والتمكين، فمن توكَّل على الله فإنَّ الله ناصره لا محالة، ومن توكَّل على

---

[١] رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه.

[٢] رواه أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح.

البشر وعلى الأسباب الماديَّة؛ فلا تنفعه بشيء؛ لذا كان الغرب والشَّرق الكافران رغم ما وصلوا إليه من تقدُّم رهيب في التَّقنية الحديثة في الأسلحة العسكريَّة إلا أنَّهم لا يستطيعون أن ينتصروا على المجاهدين الموحِّدين؛ لأنَّ الموحِّدين يتوكَّلون ويركنون بالكليَّة إلى خالقهم، والكفرة يركنون بالكليَّة إلى تقنياتهم وعددهم وعتادهم.

وكلَّما ركن المجاهدون إلى الأسباب الماديَّة ودخلت قلوبَهم بدلًا من أن يستعملوها بجوارحهم؛ كلَّما تأخَّر النَّصر عليهم، فاحذر -أخي المجاهد- من أن يَدخُل قلبَك شيء من هذا، فتركن إلى الخطَّة العسكريَّة المتقنة، أو إلى الدَّبابة والمدفع، أو إلى الدُّكمة أو إلى العدد والعتاد، نعم، هذا كله مطلوب ولا حرج، فقد أُمِرنا أن نأخذ بالأسباب، ولكن لا تتوكَّلْ ولا تركن إلى هذه الأسباب، وإنَّما توكلْ على مسبِّب الأسباب الله -عز وجل- الذي ينصر جنده، فاركن إلى من عنده النَّصر وحده، نسأل الله -عز وجل- أن ينصر عباده الموحِّدين وينصر المجاهدين في سبيله.

اللَّهم انفعنا بما علَّمتنا، واجعلنا ممَّن يستمعون فيعملون؛ إنَّك وليُّ ذلك والقادر عليه، وأنت نعم المولى ونعم النَّصير، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، ونكمل -إن شاء الله تعالى- قصَّة أصحاب الكهف في لقاء آخر وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١٠: قصة أصحاب الكهف (٣)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

وكنَّا قد شرعنا في الحلقتين الماضيتين في الحديث عن قصَّة أصحاب الكهف، تلكم القصَّة الغريبة والآية العجيبة من آيات الله -عز وجل-، ورأينا كيف قام هؤلاء الفتية المؤمنون لينكروا على قومهم شركَهم في زمانٍ كَثُر فيه الشِّرك، فلمَّا أنكروا عليهم وتبرَّؤوا منهم، وكفروا بطواغيتهم؛ توعَّدوهم وهدَّدوهم بالرَّجم والعذاب إن لم يرجعوا عن دينهم وإن لم يرجعوا عن منهجهم.

ولمَّا كان الفتية مستضعفين لا حيلة لهم قليلٌ عددهم كما ذكر الله -عز وجل-؛ فهم على أقصى تقدير سبعة وثامنهم كلبهم، فقرَّروا مفارقة قومهم باللُّجوء إلى الله ثمَّ إلى الكهف، مؤمِّلين في الله أن يرضى عنهم ويرحمهم في الدُّنيا والآخرة، ويسِّر لهم من أمرهم مِرفقًا ليفرُّوا بدينهم، فكان حفظ الله لهم آيةً من الآيات الفريدة العجيبة على مرِّ العصور والأزمان.

قال -تعالى-: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ

رُعْبًا (١٨)} [سورة الكهف]. فلمَّا لجؤوا إلى الكهف وفرُّوا بدينهم إلى الله، أتاهم حفظ الله ورعايته.

فكان باب الكهف جهة الشِّمال، فلا تصل إليهم أشعَّة الشَّمس المباشرة فتحرقهم وتؤذيهم، وإنَّما تَزَاوَرُ -أي: تميل وتنحرف- من جهة اليمين عند الشُّروق، ثم يمدُّهم الله -عز وجل- ببعض أشعَّتها غير المباشرة أيضًا عند الغروب، فتدفئهم أشعَّة الشَّمس، وتوفِّر لهم البيئة الصحيَّة التي تمنع الأعفان والجراثيم، ثم إنَّ الله ضرب على آذانهم فلا يسمعون صوتًا حتى يناموا نومًا عميقًا، فلا تزعجهم الأصوات حولهم من أصوات الحيوانات وصوت الرِّياح وصوت الرَّعد والمطر، نعم، فهؤلاء الفتية ناموا ثلاثمئة سنة، يعني: مرَّ عليهم صيف وشتاء، ولعلَّه مرَّ عليهم رعاة أغنام، وكثير من المتغيِّرات تحدث في ثلاثمئة سنة، فكان لا بدَّ أن يضرب الله على آذانهم فلا يشعروا بأيٍّ من هذه الأصوات.

ثمَّ إنَّ الله أرسل إليهم ملائكة تقلِّبهم ذات اليمين وذات الشِّمال حتَّى لا تيبس عضلاتهم، ولا تتآكل أجسامهم من الأرض، ثمَّ إنَّ أعينهم كانت مفتوحةً حتى إذا رآهم أحد ظنَّهم أيقاظًا، وكلبهم نائم على باب الغار باسطًا ذراعيه ليحرسهم، في مشهد مرعب مخيف يبثُّ به الرُّعب في قلوب كل من رآهم، وهذا كله بعض آيات الله وهدايتِه وتوفيقِه الذي يحفظ به عباده المتَّقين المهتدين.

وهنا فائدة غاية في الأهمِّيَّة، وهي أنَّ العبد إذا قدَّم أسباب النَّصر؛ فإنَّ نصر الله -عز وجل- لا يحدُّه حدود ولا يتقيَّد بالقيود الماديَّة الدُّنيويَّة، فهذا موسى -عليه السلام- لمَّا أخذ بأسباب النَّصر ثمَّ أدركه فرعون وجنده، فصار البحر أمامه وفرعون وجنوده مِن خلفه، فكان النَّصر مستحيلًا بالأسباب المادِّيَّة والقواعد الدُّنيويَّة حتى قالت بنو إسرائيل: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}، فقال نبي الله موسى -عليه السلام-: {كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، فهداه الله -عز وجل- أن يضرب بعصاه البحر، فانفلق البحر حتى صار جبالًا وطرقًا.

وهكذا -أخي الكريم- لا تسأل كيف ينصرنا الله -عز وجل- ولا تُشغِل بالك بهذا السُّؤال، لكن عليك أن تنشغل بتحقيق أسباب النَّصر، لا تقلْ: كيف سينصرنا الله وقد تكالبت

علينا أممُ الكفر جميعًا وتحالفت على القلَّة المؤمنة؟! إيَّاك أن تيأس! إياك أن تيأس من نصر الله -عز وجل-؛ فهو لا يتقيَّد بهذه القيود الدُّنيويَّة، وأخصُّ بالذِّكر المجاهدين وهم أعلم منِّي بذلك، إذا كنت قد أخذت بأسباب النَّصر وأدَّيت ما عليك، ثمَّ أنَّ معطيات المعركة الماديَّة تقول لك: إنَّ النَّصر مستحيل؛ فلا يُقعِدك هذا عن القتال؛ فنصر الله لا يعرف المستحيل، والله لا يعجزه شيء، فنصر الله لا يدخل تحت قواعد الدُّنيا ومسلَّماتها.

وفائدة ثانية؛ وهي أنَّ لله جنودًا لا تُعدُّ ولا تُحصَى ولا يعلمها إلا الله -عز وجل-، ومن جنود الله التي سخَّرها لعباده الموحِّدين هو الرُّعب، نعم، قال -تعالى-: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [سورة الكهف:١٨]، وقال -تعالى-: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا} [سورة آل عمران: ١٥١]، وقال رسول الله ﷺ: (وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)[1].

فالله -عز وجل- نصر الموحِّدين بالرُّعب، فكونوا -أيها الموحِّدون- على يقين من ذلك، على يقين أنَّ هؤلاء الكفرة مِن الأمريكانِ والرُّوسِ والرَّوافضِ والنُّصيريَّة ومَن عاونهم؛ هؤلاء جميعًا مرعوبون منكم.

نعم، أنتم قلَّة، أنتم مستضعَفون؛ فالله الذي عاقبهم على شركهم بالرُّعب، كن على يقين أنَّ هذا الطَّيار الذي يطير بطائرته على ارتفاع آلاف الأمتار؛ هذا الطَّيار مرعوبٌ في طائرته، ولم يغنِ عنه ارتفاعه، ولم يغنِ عنه حداثة طائرته وقوَّتُها، ولم يغنِ عنه علمه بأنَّ الذين على الأرض لا يملكون سلاحًا يسقطون به طائرته، فجنود الله -تعالى- التي ينصر بها عباده الموحِّدين لا تُعدُّ ولا تُحصى.

قال -تعالى-: {وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ

[1] رواه أحمد من طريق أبي أمامة رضي الله عنه، قال المنذري: وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. ورواه الترمذي من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)} [سورة الكهف].

فبعد ثلاثمئة سنة بعثهم الله -عزوجل- من جديد في آية فريدة عجيبة تدلُّ على قدرة الله الخالق العظيم المحيي المميت، وكانوا على حالهم قبل نومهم لم يتغيَّر فيهم شيء، ما زالوا فتيةً كما هم، لم تغيّرهم مئات السِّنين، ولم يمسَّهم ضررٌ ولا أذًى، فظنُّوا أنَّهم ناموا يومًا، بل إنهم حتَّى استكثروا هذا اليوم فظنُّوا أنهم ناموا بعض يوم، فانظر إلى عجيب قدرة الله -سبحانه وتعالى- {قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}.

هنا فائدة هامَّة، وهي أنَّ المؤمن يشغل نفسه دائمًا بما ينفعه، ويجتنب الجدال الذي لا نفع فيه، وقد نبَّه الله -تعالى- على هذا الأمر في موضع آخر من هذه القصَّة، فقال -تعالى-: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)} [سورة الكهف].

فالجدال والمراء الذي لا نفع فيه إضاعةٌ للوقت بلا فائدة وبلا نفع يُرجَى، بل إنَّه أحيانًا يُغيِرُ الصُّدور، فهذا يقول: "كانوا ثلاثةً ورابعهم كلبهم"، وهذا يقول: "لا، بل كانوا خمسةً"، وآخر يقول: "لا، بل كانوا سبعةً"، وهذا يقول: "لبثنا يومًا"، والثَّاني يقول: "لا، بل بِضعُ يوم"؛ فهذا يغضب من هذا، وهذا يحمل من هذا، وهذا ممَّا يمزّق روح الجماعة ويفرّقها، وهذا أمر مذموم بلا شكٍّ.

وأخطر ما يكون هذا في أرض المعركة وبين المجاهدين، فكثيرًا ما يدخل الشَّيطان من هذا الباب دون أن ينتبه له البعض، فهذا يلقي بمعلومة وهذا يخالفه، ثمَّ يصير جدالًا، ثمَّ عنادًا، ثمَّ يدخل الخلاف والبغضاء بينهم؛ لذا قال الله -تعالى-: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} [سورة الأنفال]، ولذا قال النبي ﷺ: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا)[1].

[1] رواه أبو داود بإسناد صحيح.

لذا كانت الحكمة تقتضي أنَّه إذا وُجِد هذا الخلاف في الرَّأي في مسألة من المسائل التي لا نفع فيها ولا فائدة ترجى منها؛ فإنَّه يحوَّل الموضوع لقطع الطَّريق على الفتنة من منبتها وغلق باب الشَّيطان، كما فعل هؤلاء الفتية المؤمنون {قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}، خلاص، انتهى الحوار، يُغلَق الحوار، خلاص، انتهى الجدال، انشغلوا وركِّزوا فيما هو أهمُّ وفيما هو أنفع لكم؛ ابعثوا أحدكم بما معكم من ورق -أي من فضَّة- إلى المدينة ليأتينا بطعام طيِّب حلال زكيٍّ، وليكنْ على حذر حتى لا يَشعُرنَّ به أحد.

وهنا فائدة أخرى، وهي أنَّه على المؤمن أن يتحرَّى الحلال في كل وقت، فهؤلاء الفتية رغم ما يمرُّ بهم من ضيق وكرب إلا أنَّهم أكَّدوا على مَن سيأتيهم بالطَّعام أن ينظر أيُّها أزكى طعامًا ليأتيهم به، وقد أمر الله -عز وجل- المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا} [سورة المؤمنون: ٥١]، وقد ذكر النبيُّ ﷺ الرَّجلَ يطيل السَّفر، أشعث أغبر، ثم يمدُّ يده إلى السَّماء: "يا ربِّ، يا ربِّ" ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟! فمن أسباب إجابة الدُّعاء تحرِّي الحلال.

وقولهم: {وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} فيه فائدة أخرى؛ وهي أنَّ الأخذ بالأسباب واجب على المسلمين ولا ينافي التَّوكُّل على الله -عز وجل-؛ فالأخذ بالأسباب تركه إثم كما أنَّ ترك التَّوكُّل على الله إثم، كلاهما سواء؛ فالله الذي أمرنا أن نتوكَّل عليه أمرنا بالأخذ بالأسباب، فقال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١)} [سورة النساء].

{خُذُواْ حِذْرَكُمْ} هذا أمر من الله -عز وجل-، وقد هاجر النَّبيُّ ﷺ من مكَّة إلى المدينة، فسلك طريقًا غير الطَّريق المعهود، وخرج في وقت غير الوقت المعهود للخروج، وأمر سراقةَ بتعمية النَّاس عنه، ولمَّا أراد فتحَ مكَّة ﷺ أخفى وجهته، فكلُّ هذا من الأخذ بالأسباب المأمور بها المؤمنون.

والحقيقة أنَّ النَّاس في هذا الباب ما بينَ مفَرِّطٍ ومفْرِطٍ؛ فمفرِّط ترك الأخذ بالأسباب قد غالى في التَّوكُّل، فتجده -مثلًا- عند قصف مكان في المدينة يقول: لا قصف! وينكر على من يأخذ ساترًا أو من يفرِّق النَّاس، ويحسب أنَّ هذا ينافي التَّوكُّل والشَّجاعة، وقسم آخر مُفرِط، اعتمد على الأسباب بالكليَّة وركن إليها، واعتقد فيها النَّفع والضُّر، أمَّا المؤمنون فوسط بين الطَّرفين.

لذلك على الأمير في المعركة أن لا يفرِّط في الأخذ بالأسباب، فيأمر جنوده بالدُّخول في المعركة دون خطَّة مدروسة، ودون إعداد جيِّد متقن، وكذلك لا يجوز له أن يركن بقلبه إلى الخطَّة المتقنة أو إلى العدد الكبير أو العتادِ القويّ، وكذلك على الجنود أن لا يُفرِطوا في هذا، فيقعوا في المحذور فيعصوا أمر الأمير بالهجوم؛ بحجَّة أنَّ الخطَّة ليست متقنةً مئة بالمئة، وأنَّ احتمالاتِ النَّصرِ فيها ليست على المستوى المطلوب، إنَّما على المؤمن أن يوازن بين الأمرين، وهذا في جميع أمور الحياة.

فها هم الصَّحابة -رضي الله عنهم- يعملون ويكِدُّون طلبًا للرِّزق، وفي الوقت نفسه إذا دُعُوا إلى الصَّدقة وإلى النَّفقة في سبيل الله؛ فلربما أنفق الواحد منهم كلَّ ما يملك، كما فعل الصِّديق -رضي الله عنه- حينما جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال له: (ماذا تَرَكْتَ لِأَهْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟)[1]، قال: "تركتُ لهُمُ اللهَ ورسولَه"، الله أكبر! انظر إلى هذا الاتِّزان في الأخذ بين الأمرين: التوكُّل على الله والأخذ بالأسباب.

قال -تعالى-: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُواْ إِذًا أَبَدًا} أي: أنَّهم لو اكتشفوا أمرَكم فلن يتركوكم أبدًا، فإمَّا أن ترجعوا عن العقيدة الصَّحيحة والمنهج الصَّحيح وتدخلوا في ملَّتهم -وفي هذا ضياعكم في الدُّنيا والآخرة-، وإمَّا يعذِّبونكم ويسومونكم سوء العذاب، وهذا يؤكِّد طبيعة الباطل في كل زمانٍ، ومن لا يفهم هذا لا يستطيع أبدًا أن يفهم طبيعة الصِّراع الدَّائر بين الحقِّ والباطل على مرِّ العصور والأزمان، ولن يستطيع أبدًا أن يحقِّق أسباب النَّصر.

---

[1] رواه أبو داود والترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فالباطل لا يرضى أبدًا أن يتواجد الحقُّ بجواره، وكذلك الحقُّ لا يرضى أن يتواجد الباطل أمام عينيه، فهم في تدافع إلى يوم القيامة؛ قال -تعالى-: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)} [سورة البقرة].

فمن حكمة الله -عز وجل- بل ومِن رحمته هذا التَّدافع، فلولاه لما عُلِم الحقُّ من الباطل، وما تميَّز الصَّالح من الطَّالح والمؤمن من الكافر والصَّادق من المنافق، إذن فهذا الباطل لن يرضى أبدًا عن الحقِّ حتَّى يميل وينحرف ويدخل في الباطل معه، هذه طبيعته في كل زمان ومكان.

قال -تعالى-: {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} [سورة البقرة: ١٢٠]، لن يرضوا عنكم، يا أهل الحقِّ لن يرضوا عنكم حتى تتَّبعوا ملَّتهم، هؤلاء الذين يُتْعِبون أنفسهم في استرضاء الغرب وفي تمييع الدِّين والانحطاط به، حتَّى خرجوا عن الإسلام بالكليَّة؛ آهٍ لو يفهمون هذه القاعدة وهذه السُّنَّة التي لا تتخلَّف أبدًا: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}.

نسأل الله -عز وجل- أن يبصِّرنا بديننا، وأن ينصر دولتنا، ويعلي رايتنا، ويطهِّر صفوفنا، ويوحِّد كلمتنا، وأن ينصرنا على القوم الكافرين؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، ونكمل -إن شاء الله تعالى- القصَّة في لقاء آخر وحلقةٍ جديدةٍ من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١١: قصة أصحاب الكهف (٤)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

وكنَّا قد شرعنا في الحلقات الماضية في الحديث عن قصَّة أصحاب الكهف، تلكم القصَّة العجيبة والآية الفريدة من آيات الله -عز وجل- التي لا تعدُّ ولا تحصى، ورأينا كيف هدى الله -عز وجل- هؤلاء الفتية المؤمنين إلى الحقِّ والمنهج القويم رُغمَ ما تعجُّ به بيئتُهم التي نشأوا فيها من شركيات، وذلك أنَّ الله يهدي من يشاء -سبحانه وتعالى-؛ فهو الذي هدى موسى -عليه السلام- وامرأة فرعون اللَّذين تربَّيا في بيت فرعون رأس الكفر وإمام من أئمَّة أهل النار، وهو الذي هدى يوسف -عليه السلام- الذي تربَّى في بيت العزيز، وهو في الوقت نفسه الذي أضلَّ امرأة نوح وابنه وامرأة لوط.

فسبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء، وسبحانه وتعالى لا يُسأَل عمَّا يفعل وهم يُسأَلون، فهدى الله هؤلاء الفتية للحقِّ وللتَّوحيد وللدِّين الخالص رُغمَ ما يحيط بهم من شرك، وفي هذا دليل لمذهب أهل السُّنة والجماعة، وهو أنَّه لا عذر لأحد بالجهل في الدُّنيا في أصل التَّوحيد.

ثمَّ إنَّ هؤلاء الفتية المؤمنين قاموا لينكروا على قومهم شركَهم ويدعوهم للدِّين الصَّحيح والتَّوحيد الخالص، وللكفر بهذه الطَّواغيت التي يعبدونها من دون الله، فأبى قومهم إلا اتِّباع الشَّيطان، فتبرَّؤوا منهم وكفروا بطواغيتهم، فما كان من قومهم إلا أن توعَّدوهم وهدَّدوهم بالرَّجم والعذاب إن لم يرجعوا عن دينهم ومنهجهم، ولمَّا كان الفتية

مستضعفين لا حيلة لهم، قليلٌ عددهم؛ قرَّروا مفارقة قومهم باللُّجوء إلى الله ثمَّ إلى الكهف، مؤمِّلين في الله -عز وجل- أن يرضى عنهم، وأن يرحمهم في الدُّنيا والآخرة، وييسِّر لهم من أمرهم مِرْفَقًا ليفرُّوا بدينهم من قومهم.

فكان حفظ الله -عز وجل- لهم آية من الآيات الفريدة العجيبة على مرِّ العصور والأزمان، فلبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعًا، ثمَّ إنَّ الله بعثهم وردَّ إليهم أرواحهم، فأخذوا يتساءلون: كم لبثتم؟ فاختلفوا، فقال بعضهم: "لعلنا نمنا يومًا كاملًا"، وقال بعضهم وكأنَّه ينكر طول المدَّة: "لا، ليس إلى هذا الحدِّ، بل لعلَّنا نمنا بعض يوم"، ثمَّ إنهم أرسلوا بعضهم إلى السُّوق ليلتمسَ لهم طعامًا طيِّبًا، فإذا أمرهم ينفضح للنَّاس.

قال -تعالى-: {وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١)} [سورة الكهف]، وهذا من حكمة الله -عز وجل- فهو الذي أنامهم، وهو الذي أيقظهم، وهو الذي أماتهم، وهو الذي أحياهم، وهو الذي أطلع أهل المدينة عليهم وفضح أمرهم؛ وذلك لحكمة، وهي أن يصير هؤلاء الفتية حجَّةً على قومهم وفيما اختلفوا فيه مِن هلْ يبعث الله الموتى بعد موتهم أم لا، فكانت هذه الآية دليلًا ساطعًا وحجَّةً باهرة في أنَّ الله هو المحيي والمميت، وأنَّه -عز وجل- يبعث الموتى بعد موتهم، وأنَّ هناك حسابًا وعقابًا وجنَّةً ونارًا.

وقيل: إنَّ افتضاح أمرهم حدث حينما أرادوا أن يبتاعوا الطَّعام، فاستغرب البائع أموالهم وأنكرها، حيث كانت عملتهم قديمةً ترجع إلى مئات السِّنين، وقيل: إنَّه كان عليها صورة الملك أو اسمه القديم الهالك الذي كان في زمانهم، فتجمَّع حولهم البائعون وارتابوا من أمرهم، فأبلغوا العسكر والجند، فأخذوهم إلى الملك وانكشف أمرهم، ثمَّ إنَّ الله أماتهم مرَّة أخرى بعد أن قصُّوا قصَّتهم، فاحتار النَّاس فيهم: هل ماتوا أم أنَّ الله أنامهم مرَّة أخرى؟ ثمَّ لمَّا تبيَّن لهم أنهم قد ماتوا، اتَّفقوا أن يجعلوا عند مكانهم علامةً

ليتذكَّروهم، ويكونوا لهم عبرة وذكرى، فـ{قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا} تكريمًا لهم، وحثًّا للنَّاس على عبادة ربهم.

والذين غلبوا على أمرهم هم أصحاب الكلمة والنُّفوذ والسُّلطان من رؤساء النَّاس ووجهائهم، وهؤلاء عادةً ما يغلب عليهم الجهلُ في أكثر الأزمان إلا من رحم الله، قال -تعالى-: {وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ (١١٦)} [سورة الأنعام].

ولا يدلُّ ذكر اتِّخاذ المسجد على الصَّالحين هنا على عدم الذَّنب، كما يستدلُّ أهل البدع والضَّلال؛ فإنَّ السِّياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثَّناء عليهم، كما أنَّ قوله -تعالى-: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ} فيه إشارة إلى أنَّ هناك مِن القوم مَن كان لا يرى جواز ذلك، وينبِّه على ذلك وينكر عليهم، إلا أنَّه لم يُسمَع لهم لغلبة نفوذ أصحاب السُّلطان.

وهنا فائدة غاية في الأهميَّة، وهي أنَّ أوَّل طريق الهزيمة والخسران المبين لأيِّ أمَّة هي الغلوُّ في الصَّالحين والعصبيَّة لهم من دون الله -عز وجل- ومن دون الحقِّ.

وقد ذكر الله -عز وجل- هذا في ذكر بني إسرائيل في أكثر من موضع، فقال -تعالى-: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧)} [سورة المائدة]، فأعظم خلل دخل على بني إسرائيل فقلب حالهم من {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} إلى {مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ} هو الغلوُّ في الصَّالحين.

فعبد اليهود عزيرًا من دون الله، وعبد النَّصارى المسيحَ من دون الله، بل إنَّ أول شرك كان في الأرض كان بسبب هذه الآفة؛ قال ابن عبَّاس -رضي الله عنهما- كما عند البخاريِّ قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوحٍ في العرب بعدُ، أما ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمَّا سواع فكانت لهذيل، وأمَّا يغوث فكانت لمراد ثمَّ لبني غُطَيف بالجوف عند

سبأ، وأمَّا يعوق فكانت لهمدان، وأمَّا نصر فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أنِ انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبَدْ حتَّى إذا هلك أولئك، وتنسَّخ العلم؛ عُبِدَت".

فانظر -يا رعاك الله-؛ هذا هو أوَّل شرك وُضِعَ في الأرض بسبب الغلوِّ في الصَّالحين، وبسبب اتِّخاذ أماكنهم وقبورهم أنصابًا ومساجدَ للذِّكرى وللموعظة الحسنة، ثمَّ ينقلب الحال بعد هذا فيكون عبادةً من دون الله -عز وجل-؛ لذا كان النبي ﷺ يمنع الطَّريق إلى هذا الغلوِّ بشتى الطُّرق، فها هو ﷺ ينهاهم عن القيام له وهو أحبُّ الناس إليهم، وها هو ﷺ ينكر على من قال: "ما شاء الله وشئت" فيقول: (أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟!)[١]، وها هو يحذِّرهم -بأبي هو وأمي- فيقول: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)[٢]، وها هو ﷺ يقول ويؤكِّد ويحذِّر: (أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)[٣]، فما دخل النَّقص والخلل في أمَّة أكثر ما دخل مِن هذا الباب.

وانظروا -إخوتي الكرام- إلى حالنا اليوم وقد أقيم للمسلمين دولة وصار للمسلمين إمام، فما يمنع هذه الجماعات من النَّاس -وكثير من النَّاس- فما يمنعهم أن يلتفُّوا حول هذا الإمام ويتوحَّدوا معه؟ ما هو إلا العصبيَّة للمشايخ والعصبيَّة للجماعات، وما كانت الفرقة يومًا بين قوم مثلما كانت العصبيَّة للعلماء والمشايخ والجماعات، فلا يعرف معروفًا ولا يُنكِر منكرًا إلا ما أُشرِب من هواه.

قال -تعالى-: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)}، [سورة الكهف]، أي: أنَّ النَّاس

---

[١] رواه أحمد وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد والنسائي في السنن الكبرى من طريق ابن عباس رضي الله عنهما. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده الأجلح بن عبد الله مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد، وأبو حاتم، والنسائي، وأبو داود، وابن سعد. ووثقه ابن معين، ويعقوب بن سفيان، والعجلي. وباقي الإسناد ثقات.

[٢] رواه البخاري وأحمد.

[٣] رواه مسلم.

اختلفوا في عدد أصحاب الكهف على ثلاثة أقوال لا رابع لها، وهي: ثلاثةٌ رابعهم كلبهم، وخمسة سادسهم كلبهم.

وتلاحظ -أخي المستمع الكريم- أنَّ في كل ذكر لهؤلاء الفتية الصَّالحين يُذكَر معهم كلبهم، وفي هذا لفتة هامَّة، وهي بركة مُصَاحَبَةِ ومُرَافَقَةِ الصَّالحين وبركة مجالستهم، كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "وشملتْ كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم مِن النَّوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار؛ فإنَّه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وقال الإمام القرطبيُّ -رحمه الله-: "إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدَّرجة العالية بصحبته ومخالطته الصُّلحاء والأولياء حتَّى أخبر الله -تعالى- بذلك في كتابه -جل وعلا-؛ فما بالك بالموحِّدين المخالطين المحبِّين للأولياء الصَّالحين؟! بل في هذه تسلية وأنس للمؤمنين المقصِّرين عن درجات الكمال، المحبِّين للنَّبي ﷺ وآلِه خيرِ آل"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

وقد أكَّد النبيُّ ﷺ على هذا المعنى فقال: (الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)[1]، وقال كذلك: (نَّمَا مَثلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ -أي: يعطيك هدية- وَإمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ -أي النَّار- وَإمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً)[2].

وقال -تعالى-: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِيۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩)} [سورة الفرقان]، وقال -عز وجل- في الحديث القدسيِّ عن الذي يجالس الصَّالحين في مجالسهم التي لا تخلو من ذكر الله: {هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ

[1] رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

[2] متفق عليه.

جَلِيسُهُمْ}[٣]، فالذي يصاحب أهل الحقِّ فإنَّه يكون على دينهم، والذي يصاحب أهل الباطلِ فإنَّه يكون على دينهم، وكما قيل:

أنتَ في النَّاس تقاسُ *** بالذي اخترتَ خليلًا
فصاحبِ الأخيارَ تعلُ *** وتنلْ ذكرًا جميلًا

نسأل الله -عز وجل- أن يحشرنا مع النبيِّين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين، وحسن أولئك رفيقًا؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- وقصَّةٍ جديدة من قصص بني إسرائيل، وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[٣] رواه أحمد والطبراني والترمذي، وقال: حسن صحيح. ورواه بنحوه البخاري من طريق أبي هريرة رضي الله عنه.

الحلقة ١٢: قصة صاحب الجنتين

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة عظيمة تضرب لنا أروعَ المثلِ للقِيَمِ الزَّائلة والقيمِ الباقية، وللنَّفس المعتزَّة بزينة الحياة الدُّنيا الزَّائلة، والنَّفسِ المعتزَّة بالله وبالآخرة الباقية، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من النَّاس، فمِن النَّاس مَن ينبهر بزخرف الحياة، وتُبَطِّرُه النِّعمة والقوَّة والجاه، ويحسب أنَّ هذه النِّعمة خالدة لا تفنى، ومِن النَّاس من تكون عزَّته في إيمانه بالله، فلا يرى النِّعمة إلا دليلًا على المنعم، موجبةً لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره.

نحن اليوم على موعد مع قصَّة رجلين ابتلى الله -عز وجل- أحدَهما بالمال، فأنفق ماله على ترف الدُّنيا ورغد عيشها، وأمَّا الآخر فهو فقير، وقيل: بل كان غنيًّا فأنفق ماله كله في سبيل الله وعلى الجهاد في سبيل الله -عز وجل- حتى لم يُبقِ لنفسه شيئًا إلا النَّذر اليسير ممَّا يسدُّ به رمقه؛ قال -تعالى-: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)} [سورة الكهف].

إنها قصَّة صاحب الجنَّتين، وقيل: إنَّ هذين الرَّجلين هما ابنا ملكٍ من ملوك بني إسرائيل، أنفق أحدهما ماله في سبيل الله -تعالى- وعلى الجهاد في سبيل الله، واشتغل الآخر بزينة الدُّنيا وتنمية ماله، وقيل غيرَ ذلك.

وكما اعتدنا -إخوتي الكرام- في هذه الحلقات؛ فإنَّنا لن ننشغل بالتَّفاصيل التي لا تفيد ولا تغني ولا تسمن من جوع، وإنَّما سننشغل بالعبرة والدُّروس المرادة والمستفادة من هذه القصَّة.

المهمُّ أنَّ أحد هذين الرَّجلين ابتلاه الله بمال وفير، فأنفقه على ملذَّات الدُّنيا وشهواتها، فكان له جنَّتان مليئتان بأشجار الفاكهة مِن أعنابٍ وكرم وغيرها مِن ألوانِ الفاكهة التي تطيب إليها النُّفوس وتلذُّ، وقد ازدهرت أزهارُهما وطابت ثمارُهما وحلا مذاقها، وتنوَّعت ألوانها في مشهد خلَّاب عجيب يُذهِب الألباب ويخلب الأبصار.

ثمَّ إنَّ هاتين الجنَّتين قد أحاط بهما النَّخل ليعطي لمسةً جماليَّةً للجنَّتين تزيدهما بهاءً ورونقًا، وكذلك لتحمي أشجارها من أضرار الرِّياح، فلا يسقط زهرها ولا يُؤذَى ثمرها، ثمَّ إنَّ الله -عز وجل- فجَّر نهرًا يفيض ويمرُّ بين الجنَّتين ليكتمل هذا المشهد الخلَّاب العجيب، وليكون فتنةً لصاحبه الذي أراد الدُّنيا وزينتها.

وبدلًا مِن أن يشكر صاحب الجنَّتين ربَّه على ما أعطاه الله مِن نِعَم؛ استعلى واستكبر في الأرض بغير الحقِّ، بل ذهب إلى أخيه الذي أنفق ماله كلَّه على الجهاد في سبيل الله وفي طاعة الله، ولم يبق لنفسه في الدُّنيا إلا الكفاف، وأخذ يُعيِّره ويفاخره في تشفٍّ وتعالٍ وغرورٍ، فيقول له: {أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}، لسان حاله: "يا حسرتك على ما ضيَّعتَ من مالك فيما لا يفيد! فانظر لي وإلى ذكائي وإلى حكمتي، كيف استثمرتُ مالي فصرتُ في هذا النَّعيم"، قال قتادة -رحمه الله-: "وتلك -والله- أمنية الفاجر؛ كثرة المال وعزَّة النَّفر".

وهنا -إخوتي الكرام- فائدة هامَّة، وهي أنَّ المؤمن يأخذ بالأسباب الماديَّة، نعم؛ إلا أنَّه لا يغترُّ بها ولا يغالي فيها كما يفعل الجهَّال في كل زمان ومكان؛ فإنَّهم يغترُّون بالمال والعشيرة

والحسب والنَّسب، فقالوا: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِيْنَ}، وهذا فرعون: {وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، هكذا هي طبيعتهم في كل زمان ومكان، يغترُّون بما أوتوا من أسباب ماديَّة، ويزيِّن لهم الشَّيطان أنَّهم لا غالبَ لهم بما أوتوا من قوَّة.

أمَّا المؤمنون؛ {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، وهكذا هي نظرة المؤمنين، يوقنون أنَّ الله غالب على أمره، وأنَّ الله ناصرهم.

فيا جنود الدَّولة الإسلاميَّة، لا تنظروا إلى ما في أيدي أمريكا وحلفها مِن طائرات وآليات وقوَّة وتطوُّر وتقدُّم عسكري، فوالله الذي لا إله إلا هو، لا ينفعهم هذا كلُّه إذا وقف أمامهم رجالٌ مؤمنون، رجالٌ موحِّدون موقنون، فهذا هو المجتمع المتماسك الذي لا يبيت فيه شبعانُ وجاره جائع، ويعرف فيه الغنيُّ أنَّ ما أوتي من مال هو ابتلاء من الله -عز وجل-؛ لينظر أيشكر أم يكفر، فهو يتَّقي فيه ربَّه ويَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ويعلم أنَّ لله فيه حقًّا، هذه هي الأمَّة التي ينصرها الله -عز وجل-.

ثمَّ إنَّ هذا الرَّجل أعماه غروره، فتمادى في إعراضه عن الله -عز وجل- ففتح الله عليه أبواب كل شيء، فآتتِ الجنَّةُ ثمرَها تامًّا كاملًا طيِّبًا، ولم تُنقِصْ منه شيئًا، فأنتجتَا ثمرًا تامًّا حتى فُتِن بهما فتنةً شديدةً، فظنَّ أنَّها خالدة له وهو خالد لها، وطال أمله في الحياة، ونسي المسكين أنَّه سيموت لا محالة، وسيُبعَث يوم القيامة، فيُحاسَب على القليل والكثير، والنَّقير والقطمير، ونسي هذا البائس المسكين أنَّ الشُّكر يحفظ النِّعمة مِن الزَّوال ومِن الهلكة فقال: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا}.

وهنا لفتة هامَّة -إخوتي الكرام- وهي أنَّ كثيرًا ممَّن اغترَّ بالنِّعم يظنُّ أنَّ نعم الله -عز وجل- دليلٌ على محبَّته ورضى الله عليه، ونسي هذا المغرور أنَّ نعم الله قد تكون استدراجًا للعبد وهو لا يدري، كما قال بعض السَّلف: "كم من مُستدرَج بالنِّعم وهو لا يدري"،

فالنِّعمة التي تجرُّ صاحبها لمعصية الله هي في حقيقتها نقمة وليست دليلًا على رضى الله -عز وجل-، والنِّعمة التي تدفع صاحبها إلى طاعة الله هي في حقيقتها نعمة ودليل على رضى الله -عز وجل- على العبد.

قال -تعالى-: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)} [سورة الكهف].

وهكذا لم يستطع الرَّجل المؤمن أن يرى حال صاحبه ومقالته ويسكت عليه، فحرَّكته غيرتُه على دينه وغيرتُه على التَّوحيد أن ينكر عليه، فذكَّره بأصل خلقته وبفضل الله عليه، وأنَّه كان ينبغي أن يشكر الله على تلك النِّعمة، فيؤدِّي حقَّها ويوفِّي شكرَها، لا أن يكفر بنعمة الله.

وأمَّا جنَّتك هذه -أيها المغرور- فعسى الله أن يعاقبك على كفرك بهذه النِّعمة، فيذيقك لباس الجوع والخوف، فيرسل عليها حسبانًا من السَّماء حتى تصبح جرزًا وبِرَكًا وطينًا غَدِقًا تنزلق فيه الأقدام، لا تصلح لزرع ولا لكلأ، أو لعل الله -عز وجل- يرسل عليك عقابًا من السَّماء فيجفُّ ماؤها، ويصبح غائرًا في الأرض، لا تستطيع أن تجدَه ولو حفرتَ أعمق الآبار.

وهنا فائدة هامَّة، وهي أنَّ المؤمن الصَّادق يغار على التَّوحيد ولا يسكت إذا انتُهكتْ حدود الله ولو كان المعتدي قويًّا ذا قوَّة وجاه وسلطان، فغيرة المؤمن على التَّوحيد هي دليل على صدقه؛ لذا قال النبيُّ ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)[١]، وفي رواية: (وَلَيسَ وَرَاءَ ذلِكَ مثقال حبَّة من خردل من إيمان)[٢].

نعم، إنَّ الإيمان مرتبط بإنكار المنكرات؛ لأنَّ المؤمن يغار، ومن غيرته أنَّه لا يرى منكرًا فيسكت عليه أبدًا، فالسُّكوتُ على المنكرات وبرودُ القلب وعدمُ الغيرة على التَّوحيد وعلى حدود الله التي تُنتهَك من أعظم أسباب الهزيمة.

قال -تعالى-: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} [سورة المائدة: ٧٨-٧٩]، فكان من أسباب انقلاب الحال في بني إسرائيل أنَّهم كانوا لا يتناهون عن المنكرات، قال صاحب الظِّلال: "وهكذا تنتفضُ عزَّة الإيمان في النَّفس المؤمنة، فلا تبالي المالَ والنَّفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثمُ في الحقِّ ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعرُ المؤمن أنَّه عزيز أمام الجاه والمال، وأنَّ ما عند الله خير مِن أعراض الحياة، وأنَّ فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله، وأنَّ نقمة الله جبَّارة، وأنَّها وشيكةٌ أن تصيبَ الغافلين المتبطِّرين".

وهكذا -إخوتي الكرام- تتحقَّق السُّنة الرَّبانيَّة التي لا تتخلَّف أبدًا، فيسلب الله هذا العبد النِّعمة التي لم يؤدِّ حقَّها، ويستجيب لدعوة العبد المؤمن، قال -تعالى-: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)} [سورة الكهف]، فرغم أنَّ الجنَّتين كانتا في أكمل صورة وأحسن نبات، إلا أنها لم تنفعه بشيء، ولم ينفعه أولاده الذين كان يتفاخر بهم، ولم يجد إلا الحسرة والنَّدامة على ما فرَّط في جنب الله.

---

[١] رواه مسلم من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[٢] رواه مسلم من طريق ابن مسعود رضي الله عنه.

ثمَّ إنَّ الله -عز وجل- يختم هذه القصَّة الرَّائعة بمثل رائع بليغ ليكون عبرةً لكلِّ مَن أراد أن يعتبر، قال -تعالى-: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)} [سورة الكهف]، فهذه هي حقيقة الدُّنيا؛ بذرة ضعيفة ثمَّ نبات ضعيف ثمَّ أشجار قويَّة مورِقة مزهِرة مثمِرة، ثمَّ ماذا؟ ثمَّ هشيمًا تذروه الرِّياح، يموت ويبس ويصير حطامًا تذروه الرِّياح.

فإيَّاك أخي الكريم أن تغترَّ بقوَّتك أو بمالك أو بأولادك كما اغترَّ هذا البائس المسكين بأشجاره القويَّة؛ فإنما هذا كلُّه زينة الحياة الدُّنيا الفانية التي مهما طالت فإنَّ مصيرها إلى الزَّوال، ولا ينفعك -أيُّها العبد المؤمن- إلا الباقياتُ الصَّالحات مِن طاعاتٍ وقرباتٍ لله -عز وجل-.

هكذا هي صفة القوم الذين ينصرهم الله -عز وجل-، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- وقصَّةٍ أخرى من قصص بني إسرائيل، وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١٣: قصة ذي القرنين (١)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة شيِّقة، ذكرها لنا الله في كتابه بالحقِّ لنستَلْهِمَ منها العبرَ والدُّروس، على موعد مع قصَّة ربطت بين أوَّل الزَّمان وآخره، نحن على موعد مع قصَّةِ ملكٍ عادل طاف مشارقَ الأرضِ ومغاربها في رحلة شيِّقة عجيبة.

قال -تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)} [سورة الكهف]، إنَّها قصَّة ذي القرنين، ذلك الملك العادل الذي بلغت فتوحاتُه مشارق الأرض ومغاربها، وقد اختلف المفسِّرون في تحديده، فقيل: هو الإسكندر المقدوني، وقيل: رجل من حِمْيَرٍ، وقيل غيرَ ذلك أقوالًا كثيرةً لا تهمُّنا، ولا ينبغي أن ننشغل بها عن المراد من القصَّة، كما تعوَّدنا من قبل.

وقد اشتهر أنَّ سبب قوله -تعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ} أنَّ اليهود ذكروا أسئلةً لقريش ليعرفوا بها صدق النبي ﷺ وصدقَ نبوءته، فقالوا: "سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسل، وإلا فرجل متقوِّل تروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل ما كان من أمرهم؟ فإنَّهم كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طوَّاف بلغ مشارقَ الأرض ومغاربها ما كان نبأه؟ وسلوه عن الرُّوح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتَّبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم".

المهمُّ أنَّه ملك عادل مكَّن الله له في الأرض، واتَّسع ملكه شرقًا وغربًا، وآتاه الله من الأسباب الماديَّة التي تعينه على هذا، قال -تعالى-: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)} [سورة الكهف].

وفي هذا لفتة هامَّة لكل ممكَّن ليَتذكَّر أنَّ التمكين الذي هو فيه هو من عند الله -عز وجل- فلو شاء الله سلبه، ولو شاء الله حفظه وأبقاه، فهو -تعالى- مالك الملك، يؤتي ملكه من يشاء، وينزع ملكه ممَّن يشاء، يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

فمن رزقه الله القوَّة والتَّمكين في الأرض؛ فعليه ألَّا يغترَّ بهذه القوَّة، فيقع فيما وقع فيه الهالكون من قبله حينما قالوا: {مَنْ أشدُّ منَّا قوَّةً}؛ فإنَّ الله الذي خلقه هو أشدُّ منه قوَّة، فعلى من رزقه الله التَّمكين أن يتواضع لله، ولا يتكبَّر بهذا النَّصر الذي هو ليس من عنده بل هو من عند الله، والكبر آفة خطيرة تهدم الأمم وتلحق بهم الهزائم والخسران في الدُّنيا والآخرة.

وقد قصَّ الله علينا شيئًا من رحلة ذي القرنين تلك، فذكر لنا ثلاث محطَّات في هذه الرِّحلة، فأمَّا المحطَّة الأولى؛ فقال الله -تعالى- حاكيًا لنا قصَّتها: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)} [سورة الكهف].

فبلغ ذو القرنين في فتوحاته مكانًا تغرب الشَّمس فيه في عينِ ماءٍ ساخن على القراءة المشهورة: {وجدها تغرب في عين حامية}، أو في عين تخرج من الطِّين اللَّزج الذي هو الحال عند مصبِّ الأنهار على القراءة المشهورة: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} المهمُّ أنه وجد هناك أمَّةً من الأمم منهم المشركون ومنهم الصَّالحون فخيَّره الله -عز وجل- إمَّا من خلال الوحي

المباشر على القول بأنَّه نبي، وإمَّا من خلال نبيٍّ كان معه كما هو عادة بني إسرائيل، حيث كان الملك والنبوَّة فيهم منفصلَين ولم يجتمعا قبل داود -عليه السلام-.

فلمَّا مكَّنه الله منهم، وحكَّمه فيهم، وأظفره بهم؛ خيَّره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء مَنَّ أو فدى، حيث قال: {أَمَّا مَن ظَلَمَ}، أي: من استمرَّ على كفره وشركه بربِّه {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ} أي: بالقتل وقيل بغير ذلك، {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا} أي: شديدًا أليمًا {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ} أي: اتَّبعَنَا على ما ندعوه إليه مِن عبادة الله وحده لا شريك له {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ} أي: في الدَّار الآخرة عند الله -عز وجل- {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}، وهكذا -إخوتي الكرام- كانت المحطَّة الأولى من رحلة ذي القرنين -رحمه الله- تُظهِر عدالته.

وهنا وقفة هامَّة وفائدة عظيمة، وهي أنَّ العدل أساس الملك والوسيلةُ الأكيدةُ للحفاظ عليه، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في الفتاوى: "فإنَّ النَّاس لم يتنازعوا في أنَّ عاقبة الظُّلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

فعلى كل أمير وعلى كل مسؤول بل وعلى كل جنديٍّ في دولة الإسلام؛ أن يحرص على العدل قدر استطاعته، وأن يحرص على أن لا يظلم أحدًا؛ فإنَّ العدل من أسباب حفظ الملك وحفظ الدَّولة وبقائها وتمدُّدها بإذن الله تعالى، وإنَّ الظُّلم ظلمات يوم القيامة كما أخبر الصَّادق المصدوق ﷺ وإنَّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

تنامُ عيناك والمظلوم منتبهٌ *** يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

وكذلك على عوامّ المسلمين في دولة الإسلام أن يعينوا إخوانهم على إقامة العدل، فالعدل ليس فقط مسؤوليَّة الحسبة والشُّرطة والقضاء، وإنما هو مسؤولية الجميع، فإن سكت العوامُّ على الظَّالم وأبوا أن يشهدوا بالحقِّ نتيجةً للعصبيات والقبليَّات؛ فكيف يقضي القاضي بالعدل؟! لأنَّه لا يحكم بهواه ولا يحكم بما يستشعر من مشاعر وأحاسيس، وإنما يحكم بما توفَّر لديه من الأدلَّة والبراهين، فإن لم يعن عوامُّ المسلمين الشُّرطةَ والحسبةَ والقضاءَ وسكتوا على الظَّالم وآووه؛ فأنَّى يقام العدل؟!

فعلينا أن نتعاون جميعًا في إقامة العدل وفي رفع الظُّلم عن المظلوم؛ إذ أنَّ العدل بين النَّاس من أسباب النَّصر؛ لأنه امتثال لأمر الله تعالى قال -تعالى-: {وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ} [سورة النساء:٥٨]، وقال -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)} [سورة النحل].

نهى الله -عز وجل- أشدَّ النهي عن الظُّلم وحرَّمه، حرَّمه حتى على نفسه، فقال كما في الحديث القدسي: {يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا}[1]، فالظلم محرَّم على كل مسلم، وإنَّ عاقبته وخيمة في الدُّنيا والآخرة، قال -تعالى-: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢)} [سورة إبراهيم]، وقال -تعالى-: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)} [سورة الشعراء].

فيا جنود الدَّولة الإسلاميَّة ويا أمراء الدَّولة الإسلاميَّة، أوصيكم ونفسي بتقوى الله والعدل بين النَّاس ما استطعتم إنْ أردتم أن تحافظوا على دولتكم التي منَّ الله بها عليكم، واعلموا أنَّ تلك الدَّولة وهذا التَّمكين والتمدُّد إنما هو ابتلاء من الله -عز وجل- قال -تعالى-: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)} [سورة الأعراف]، فإهلاك العدوِّ والاستخلاف في الأرض ما هو إلا ابتلاء من الله واختبار من الله لينظر كيف نعمل، فإن أحسنَّا أحسنَّا لأنفسنا، وحفظ الله لنا هذه الدَّولة وهذه النِّعمة التي أنعم الله بها علينا، ألا وهي إقامة حكم الله وسلطانه على الأرض والجهاد في سبيله، وإنْ أسأنا، سلب الله منَّا هذه النِّعمة واستبدَلَنا بقومٍ غيرِنا.

وفائدة أخرى لا يفوتنا أن نعرِّج عليها، ألا وهي أنَّ العدل ليس معناه المساواة كما يزعم الغرب الكافر، وكما زرع في أبناء المسلمين هذا المفهوم في سنوات التَّغريب والتَّجريف العقدي حتى صار أكثر المسلمين يظنُّ أنَّ المساواة كلمة مساوية للعدل، وهذا غير صحيح

[1] رواه مسلم.

البتة؛ فقد ميَّز ذو القرنين بين المؤمنين والمشركين، فجعل العذاب لمن ظلم نفسه بالشِّرك، إذ أنَّ الشِّرك أشدُّ الظلم، وجعل الإحسان للمؤمنين، والله -عز وجل- يقول: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)} [سورة القلم]، وقال -تعالى-: {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)} [سورة السجدة]، والتمييز بين المؤمن والكافر هو عين العدل.

فما هو أصل الدِّيمقراطيَّة؟ إنَّ أصلها هو المساواة بين النَّاس، يختارون ما يشاؤون، والكافر والمسلم لهم نفس الحقوق، فلا حرج أن يكون الكافر رئيسًا للمسلمين إنِ ارتضتهُ الأغلبيَّة! ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا من المساواة التي تعني عندهم العدل، وما زالوا في غيِّهم وظلمهم وضلالهم حتَّى خرجوا يرمون الله بالظُّلم سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا، حيث أنَّه لم يسوِّ بين المرأة والرَّجل في الميراث، ومثل هذا من الشُّبهات السَّاذجة التي لا تنطلي إلا على بسطاء النَّاس وجَهَلَتِهِمْ، بل وحتى خاضوا في الذَّات الإلهيَّة -عياذًا بالله العظيم- كل هذا استنادًا على تلكم القاعدة الفاسدة التي بثُّوا سمومها بين أبناء المسلمين.

إذن -إخوتي الكرام- فليس المساواة تساوي العدل؛ فهذا ذو القرنين قد فرَّق وميَّز بين المؤمن والكافر وبين الصَّالح والفاجر، وهكذا هي سنَّة الله -عز وجل- وهذا هو عين العدل، ولو أنَّك تأمَّلتَ في حال هؤلاء الكفرة الكاذبين؛ لوجدتهم أبعدَ الناس عن هذه الفكرة، فهم لا يسوُّون أبدًا بين الأديان ولا العقائد كما يدَّعون ويزعمون ويبثُّون هذه السُّموم بين أبناء المسلمين، بل إنَّك ستجد أنَّ أكثر مِن ٢٥ دولةً من الدُّول الكافرة في ديار الكفر يحمل عَلَمَهَا الطَّاغوتيَّ (الصَّليبَ) رمزًا لها، فأين المساواة؟! وهذه إنجلترا ينصُّ دستورها الكفري على أنَّه لا يُسمَح لغير المسيحيِّين (لغير النَّصارى) ولا حتَّى لغير البروستانت بالذَّات أن يكونوا أعضاءً في مجلس الأردات (البرلمان الكفري الذي هو عندهم)، ومثل ذلك تجده في اليونان وفي ألمانيا والدنمارك والسُّويد وغيرهم ممَّن ينادون بالحريَّة والمساواة والعدل.

أما أن يقام للإسلام دولة تقيم شرعَ الله في الأرض وتفرض الجزية على الكافرين ولا تسوِّي بين المسلم والكافر وتقيم الحدود وتجاهد الكافرين؛ فلا، فهذا من التطرُّف،

وهـؤلاء لا بـدَّ وأنَّهم خـوارج، والإسـلام بـريء منهم، ولا حـول ولا قـوة إلا بالله، ولكن ليمكننَّ الله للمسلمين وليبلغنَّ هذا الدِّين ما بلغ اللَّيل والنَّهار بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل.

نسـأل الله -عـز وجـل- أن يمتِّعنا بالجهاد ما حيينا، وأن ينصر المجاهدين، وينصر دولة الإسلام على القوم الكافرين، ويمكِّن للمجاهدين الموحِّدين في الأرض؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي هذا القدر كفاية، ونكمل -إن شاء الله تعالى- القصَّة في لقاء جديد وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١٤: قصة ذي القرنين (٢)

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقة جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

وما زلنا -إخوتي الكرام- مع قصَّة ذي القرنين ومع رحلته الشَّيِّقة العجيبة، فذو القرنين رجل آتاه الله الملك، فملك مشارقَ الأرضِ ومغاربها، وضرب الله به المثل للعبد الصَّالح الذي عرف حقَّ النِّعمة وأدَّى شكرها، وأصلح بين النَّاس ونشر العدلَ بينهم.

وقد ذكرنا في الحلقة الماضية المحطَّة الأولى من رحلة ذي القرنين -رحمه الله- ألا وهي مغرب الشَّمس، وبقي لنا محطَّتان، فأمَّا الأولى؛ فعند مطلع الشَّمس، قال -تعالى-: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢)} [سورة الكهف]. وقوله -تعالى-: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} فيه أنَّ النَّاس يعطون الأسباب الموصلة، فمنهم من ينتفع بها ومنهم من لا ينتفع، فقوله: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} أي: اتَّبع السَّبب الموصل لمقصوده، فإنَّه كان جادًّا حازمًا، فعلى من أراد أسباب النَّصر أن يكون جادًّا في أخذه بالأسباب مثابرًا لا ييأس عند هزيمته ولا ينكسر أبدًا، كما قال النبيُّ ﷺ وهو يصف المؤمن فقال ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ، تُفِيئُهَا الرِّيحُ، تَصْرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ الْمُجْذِيَةِ عَلَى أَصْلِهَا، لَا يُفِيئُهَا شَيْءٌ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً)[١].

[١] رواه مسلم.

فهكذا مثل المؤمن؛ لا ينكسر أبدًا لأنَّه يعرف أنَّه على الحقِّ، ومن عرف أنَّه على الحق فإنَّ اليأس لا يعرف له طريقًا، فالمؤمن كالخامة من الزَّرع، أي: كالنَّبتة الخضراء الغضَّة اللّيِّنة التي إذا أصابتها الرِّيح انحنت وانثنت، لكنها أبدًا ما تنكسر، وتظلُّ تصارع الرِّيح طيلة حياتها حتى تهيج أي: تموت وهي واقفة.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "ثمَّ سلك طريقًا فسار من مغرب الشَّمس إلى مطلعها، وكان كلَّما مرَّ بأمَّة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله -عز وجل- فإن أطاعوه وإلا أذلَّهم وأرغم آنافَهم واستباح أموالهم وأمتعتَهم، واستخدم من كل أمَّة ما تستعين به جيوشه على قتال الأقاليم المتاخمة لهم، وذُكِر في أخبار بني إسرائيل أنَّه عاش ١٦٠٠ سنة يجوب الأرض طولها والعرض، حتَّى بلغ المشارقَ والمغاربَ"، انتهى كلامه -رحمه الله-.

ومطلع الشَّمس هنا -إخوتي الكرام- يحتمل عدَّة احتمالات؛ فإمَّا أن يكون مكانًا منبسطًا لا تلال فيه ولا جبال، وعلى هذا المعنى يكون المراد من قوله -تعالى-: {لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠)}، أي: لا ظلَّ فيه يسترهم من أشعَّة الشَّمس الحارقة.

وإمَّا أنَّه مكان في أقصى الشَّرق، وجد فيه قومًا فقراءَ بسطاءَ، حتَّى أنهم لا يملكون ما يسترون به أنفسَهم من الشَّمس، أو لا يعرفون كيفية صناعة الثِّياب وحياكتها، فكان وصول ذي القرنين نجدةً وعونًا من الله لهم.

وإمَّا أنَّه وصل إلى أطراف الأرض من المناطق النَّائية في أقطاب الأرض التي يطول فيها النَّهار شهورًا طويلةً بلا ليل، وفي هذا إشارة إلى اتِّساع ملكه الشَّديد، ثمَّ إنَّ ذا القرنين قد أعلن من قبلُ منهجه في الحكم، فلم يتكرَّر بيانه هنا ولا تصرُّفه في رحلة المشرق لأنَّه معروفٌ مِن قبل.

ثمَّ إنَّ ذا القرنين اقتفى طريقًا ثالثًا، فكانت المحطَّة الثَّالثة والأخيرة في قصَّته الشَّيِّقة، قال -تعالى-: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣)} [سورة الكهف]، وصل ذو القرنين -رحمه الله- إلى مكان بين سدَّين -لعلهما جبلان- وبينهما

ممرٌّ أو فضاء من الأرض، ووجد قريبًا منهما قومًا بسطاء لا يكادون يفهمون شيئًا من كلامه، فلعلَّ الحوار الذي دار بينهما كان بالإشارة، الله أعلم.

المهمُّ أنَّه بعد أن أقام سنَّته التي عرفناها في كل محطَّة من محطَّاته، وهي دعوة النَّاس للتَّوحيد، فمَن قَبِلَ أكرمه وكان له من أمره يسرًا، ومَن أبى عذَّبه؛ جاءه القوم المؤمنون ليطلبوا منه طلبًا، قال -تعالى-: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)} [سورة الكهف].

فلمَّا رأوا سلطان ذي القرنين وقوَّته وعدالته وكرمه؛ طلبوا منه أن يعينهم على يأجوج ومأجوج حيث أنهم قوم مفسدون في الأرض، وعرضوا عليه أن يعطوه المال إن شاء مقابل أن يعينهم على ذلك، فأبى ذلك وقال: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}، أي: لا حاجة لي بمالكم، فما منَّ الله علي من نعم خير من مالكم، لكن عليكم أن تعينوني بما لديكم من قوَّة بدنيَّة وعدديَّة ومن خامات؛ إذ أنَّ العمل الذي سأعمله عمل شاقٌّ وعظيم يحتاج إلى تضافر كلِّ الجهود المتاحة.

وهنا -إخوتي الكرام- فائدتان هامَّتان؛ **فأمَّا الفائدة الأولى**؛ فهي أنَّ زهد الإنسان لما في أيدي إخوانه، والقناعة والرِّضا بما مكَّنه الله به لَمِن أعظم أسباب النَّصر؛ فالأمَّة التي ينظر كل واحد فيها لما في أيدي أخيه والتي لا يقنع فيها أهلها ولا يرضون بما كتب الله لهم من رزق؛ لهي أمَّة مفكَّكة مهزومة.

فهذا يشتكي لماذا أُعطِي فلانٌ كذا وأنا أحقُّ به؟! وهذا ينظر إلى أخيه باحتقار كيف يُعطَى كذا وهو ليس أهلًا لهذا العطاء؟! وهذا يقول: كيف تؤمِّرون عليَّ فلانًا وهو ليس أهلًا للإمارة؟! فتُنشَر الأحقادُ وتسودُ الأطماع، فأنَّى ينصرون؟! وقد نهى الله -عز وجل- نبيَّه ﷺ

والأمَّةَ من بعده أن ينظروا إلى ما أنعم الله به مِن نعم على غيرهم مِن عباده، فقال -تعالى-: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)} [سورة طه].

فعلى كل مسلم يريد أسباب النَّصر أن يقنع بما آتاه الله، ويرضى بما كتب الله له؛ لأنَّه مَن رضي بما كتب الله له ولم ينظر إلى ما في أيدي إخوانه؛ كان له الرِّضا من الله -عز وجل- وكان له سكينة القلب واطمئنانه، وهذا -إخواني الكرام- من كمالِ التَّوحيد وتمامِه.

وهذا المجتمع وهذه الأمَّة التي يوقن كل فرد فيها أنَّ كلَّ رزق جاءه إنَّما هو من عند الله، وأنَّ ما مكَّنه الله فيه -ولو كان قليلًا- هو خير وأصلح له ممَّا مكَّن فيه غيره -ولو كان كثيرًا- فهذا هو المجتمع وهذه هي الأمَّة التي ينتشر فيها المحبَّة ويُعرَف عنها الإيثار والتَّعاونُ على البرِّ والتَّقوى.

وأمَّا الفائدة الثَّانية؛ فهي أنَّ علوَّ الهمَّة في أعمال البرِّ والتَّقوى لَمِن أعظم أسباب انتصار الأمم، فرغم أنَّ جعلَ ردمٍ بين السَّدَّين لهو عمل عظيم وشاقٌّ جدًّا، خاصَّة وأنَّ هذا الرَّدم سيمكث إلى قرب قيام السَّاعة، أي: لا بدَّ وأن يتحمَّل عوامل التَّعرية والتقلُّبات المناخيَّة والبيئيَّة والبشريَّة، لا بدَّ أن يتحمَّل كل هذا سنوات طويلةً جدًّا، والدَّليل على صعوبة هذا العمل وعظمه أنَّ ذا القرنين رغم ما أُوتي من قوَّة ورغم ما معه مِن جيوش جرَّارة تفتح البلاد والأقطار، وسلطانٍ واسعٍ؛ إلا أنَّه قال لهم: {فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ}، ممَّا يدلُّ على استعظام العمل لكونه يحتاج إلى كل الطَّاقات المتاحة والممكنة.

ومع كون هذا العمل بهذه الصُّعوبة إلا أنَّه -رحمه الله- لم يتردَّد لحظةً واحدةً في مساعدتهم ومدِّ يد العون لهم، ممَّا يدلُّ على عظمِ وعلوِّ همَّة هذا الملك العظيم، بل دلَّ كذلك على عظم همَّته أنَّه أعطاهم أكثر ممَّا أرادوا، فلقد طلبوا منه سدًّا ليس أكثر، مجرَّد سدٍّ بين الجبلين، فعزم على ما هو أعظم من السَّد، ألا وهو الرَّدم، فالرَّدم أكثر تحصينًا من السَّد، إذ أنَّ الرَّدم يكون طبقات بعضها فوق بعض، كما تقول: سحاب مردَّم أي: متكاتف بعضه فوق بعض.

ثمَّ لم يكتفِ بهذا وحسب، بل زاد على هذا واستعمل الحديد بدلًا من الحجارة في الرَّدم بين الجبلين، ثمَّ كذلك أمر بنفخ النَّار في هذا الحديد ليُصهَر فيصير كتلةً واحدةً ملتحمةً، ثمَّ لم يكتفِ بهذا أيضًا، بل أفرغ عليه قطرانًا من مادَّة تجعله أملس، حتَّى لا يتمكَّن يأجوج ومأجوج مِن نقبه بالطَّرق عليه والحفر فيه لشدَّة صلابته، ولا مِن تسلُّقه لشدَّة ملاسته، فانظر -أخي الكريم- إلى هذا المثل الرَّائع والنَّموذج العظيم من علوِّ الهمَّة في التَّعاون على البرِّ والتَّقوى.

إذن -إخواني الكرام- فالأمَّة الكسولة صاحبة الهمم الضَّعيفة والطُّموحات التَّافهة أمَّةٌ لا تستحقُّ النَّصر، ولا عجب أن تكون في أذيال الأمم، والأمَّة التي همَّتها كالجبال وكشعلةِ النَّار التي لا تنطفئ، ولا ترتضي إلا العلوَّ مهما نكَّستَها وخفَّضتَها أمَّة ينصرها الله -عز وجل- ولا ريب، أمَّة لا يعرف اليأسُ ولا تعرف الهزيمةُ لقلبها طريقًا.

وانظر إلى حال هؤلاء المهزومين ممَّن يشكُّون ويشكِّكون في دولة الإسلام، ويرمونها بأنَّها صناعة مخابراتيَّة، كثيرٌ منهم يصدِّق هذا الكلام التَّافه؛ لأنَّه لا يتخيَّل أن يكون للمسلمين سلطان وكرامة بعد سنوات الذُّلِّ والهوان الطَّويلة، لا يتخيَّل أن يقف إنسان أمام طواغيت العرب والعجم، يقول: "معقول! هناك أحد يستطيع أن يقف أمام أمريكا؟!" وانظر إلى المخذِّلين، هؤلاء المخذِّلين ينظرون إليك باستهزاء، يقولون: "يعني: أنتم ستهزمون أمريكا؟!" حتَّى طريقة نطقهم للكلمة فيها استعظام -والعياذ بالله- وكأنَّهم لا يُهزَمون، فهؤلاء حقَّ لهم أن يكونوا في أذيال الأمم، كل همِّهم الطَّعام والشَّراب؛ ليتمتَّعوا ويأكلوا كما تأكل الأنعام، ويعيشوا كما تعيش البهائم -أعزَّكم الله- فهؤلاء حقَّ لهم أن يكونوا للذُّل والهوان أصحابًا وأقرانًا.

ثمَّ لمَّا أتمَّ هذا الملك العظيم ذو الهمَّة العظيمة هذا العملَ، قال كلمةً عظيمةً تدلُّ على عظم هذا الملك، قال -تعالى-: {قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)} [سورة الكهف].

فرغم هذا العمل الضَّخم العظيم إلا أنَّ هذا العبد العظيم كعمله لم يأخذه البطر والغرور حينما نظر إلى العمل بعد تمامه، ولم تأخذه نشوة القوَّة والعجب بما عمل، ولكنَّه نسب الفضل إلى الله -تعالى- وردَّ التَّوفيق في هذا العمل إلى الله -عز وجل- وتبرَّأ من قوَّته إلى قوَّة الله، ومِن حوله إلى حول الله.

وهكذا يجب أن يكون حال الأمَّة التي ينصرها الله -عز وجل-؛ تتواضع لله وتردُّ الفضل لله -عز وجل- ولا تغترُّ ولا تتكبَّر بما منَّ الله عليها من نصر، تتأسَّى برسولها الكريم ﷺ لمَّا فتح الله -عز وجل- عليه مكَّة، فدخل مكَّة منتصرًا، دخل على قومه الذين كذَّبوه وآذوه وطردوه، دخل عليهم منتصرًا فماذا فعل؟ دخل مطأطئًا حتى كادت أن تمسَّ لحيته دابَّته! بأبي هو وأمِّي ﷺ، هكذا ينبغي أن يكون حال الأمَّة التي ينصرها الله -عز وجل-؛ تتواضع لله وتردُّ الفضل لله -عز وجل-.

وهكذا -إخوتي الكرام- تنتهي هذه الحلقة من سيرة هذا الملك المؤمن العظيم الذي ضرب أروع المثل للحاكم الصَّالح العادل الحكيم، صاحبِ الهمَّة العظيمة والأخلاق القويمة، المتواضعِ لله -عز وجل- النَّاشر للتَّوحيد والعدل في ربوع الأرض، فما كان من الله -عز وجل- إلا أن منَّ عليه بأن مكَّن له مشارقَ الأرض ومغاربَها.

نسأل الله -عز وجل- أن يمنَّ على دولة الإسلام وعلى خليفة المسلمين -حفظه الله- بمثل ما منَّ الله به على هذا الملك العظيم؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله تعالى- وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١٥: قصة قارون

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعد مع قصَّة رجل مجهول من بني إسرائيل لا قيمة له ولا وزن، فلمَّا بسط الله له الرِّزق؛ بغى وتكبَّر واستعلى في الأرض بغير الحقِّ، نحن اليوم على موعد مع نموذج يتكرَّر كثيرًا في كل زمان ومكان؛ قال الله -تعالى-: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} [سورة القصص: ٧٦]، إنَّها قصَّة قارون، ذلك الرَّجل الذي كان نكرةً لا وزن له مِن قوم موسى، كما يُشعِرك التَّعبير القرآني: {كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ}، أي: مثله كمثل أيِّ واحد من بني إسرائيل، وقيل: إنَّه كان ابن عمِّ موسى، فلم تنفعه قرابته لنبيِّ الله موسى؛ لكونه بغى وتكبَّر وكفر.

وهكذا هي سنَّة الله -عز وجل- كما قال ﷺ: (وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ؛ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ)[١]، قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "يُؤتَى بالعبدِ والأَمَةِ يومَ القيامة، فينادي منادٍ على رؤوس الأوَّلين والآخرين: هذا فلان بن فلان، مَن كان له حقٌّ فليأتِ إلى حقه، فتَفرَحُ المرأةُ أن يكون لها الحقُّ على أبيها أو أمِّها أو أخيها أو زوجِها" الله أكبر! ثمَّ قرأ -رضي الله عنه-: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)} [سورة المؤمنون]، فلا تنفعهم هذه الأنساب في هذا اليوم كما كانت تنفعهم وتسهِّل لهم بعضَ أمورهم في الدُّنيا.

---

[١] رواه مسلم.

فتخيَّل يا عبد الله، يا من تعصي الله مِن أجل الأبناء والأهل والأقارب، هؤلاء هم أوَّل مَن سيعاديك يوم القيامة، ولو لجأتَ إليهم سيفرُّون منك، فلم تنفع قارونَ قرابتُه من نبيِّ الله موسى؛ لكونه بغى وتكبَّر وكفر.

وفائدة أخرى؛ وهي أنَّ موسى -عليه السلام- لم يملك له الهداية رغم أنَّه قريبه، وكذلك لم يملك نوح -عليه السلام- أن يهدي ولدَه ولا زوجتَه، ولم يملكها إبراهيم لأبيه؛ فهذه هي سنَّة الأوَّلين، وفي هذا مواساة لكل موحِّد وُفِّقَ للمنهج الصَّحيح إذا كان له مِن أقاربه مَن يعاديه ويرميه بالتَّشدُّد وأنَّه من الخوارج وأنَّه على الباطل ويؤذيه، وهذا كثيرًا ما يعاني منه أهل الحقِّ، فكثير من المجاهدين في دولتنا المباركة يأتي فيشتكي والديه أو أخاه أو عمَّه أو قرابتَه أنَّهم يحاربونه ويعادونه، وهو يحاول كثيرًا معهم لكنَّهم لا يستجيبون له، بل يقابلون دعوته بالاستهزاء والازدراء، فإن كان أقاربك -أخي الكريم- قد بغوا عليك فلا تحزن؛ فمَن هُمْ أكرمُ منك ومَن هُمْ خيرٌ منك أوذوا في الله أكبر ممَّا أوذيتَ أنت، فهذه هي طبيعة طريق الحقِّ وهذه هي سنَّته.

ثم قيل: إنَّ قارون تعلَّم التَّوراة وأُوتِي العلم، فكان أحفظَ بني إسرائيل لها، وقيل: إنَّه عرف اسم الله الأعظم، فدعا به الله أن يغنيه، فأغناه الله -عز وجل- وآتاه كنوزًا تَعجَز الجماعةُ من الرِّجال الأقوياء على حمل مفاتيح خزائنها، فتكبَّر وطغى على قومه وتعالى عليهم، فقام الصَّالحون من بني إسرائيل لينصحوه ويعظوه ويذكِّروه بالله، قال -تعالى-: {إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)} [سورة القصص].

أي: لا تفرح ولا تغترَّ بما أنت فيه، وإيَّاك والبطرَ بما أنت فيه مِن المال؛ إنَّ الله لا يحبُّ الفرحين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم، المتباهين المتطاولين بسلطان المال على النَّاس، واستعملْ هذا المال في طاعة الله والتَّقربِ إليه -عز وجل-؛ لتنعم بالدَّار الحقيقيَّة وهي الدَّار الآخرة.

ولا تنسَ أنَّ هذه الدُّنيا هي دار ممرٍّ، لكلِّ إنسان فيها نصيبٌ من العمل هو الذي ينفعه في الدَّار الآخرة، فلا تُضيِّعْ عمرك ولا تُضيِّع حظَّك في الدُّنيا في أن لا تعمل عملًا صالحًا في دنياك، ولا حرج أن تتمتَّع ببعض هذه الزِّينة فيما أباحه الله مِن المأكل والمشرب والزِّينة، وانظر لمن ملك الدُّنيا وما فيها؛ فهل خرج منها بغير القطن والكفن؟! فهذا هو نصيبُ المرءِ الحقيقيُّ مِن هذه الدُّنيا.

ولا تجعل هذا المال ينسيك فقرك الذي كنت عليه، فأحسن الله إليك ورزقك هذا المال، وما هذا إلا ابتلاء واختبار من الله -عز وجل- فإنْ أحسنتَ فيما أحسن الله إليك؛ حافظتَ على هذه النِّعمة وأثابك الله عليها، وإنِ استعملتَها في البغي والفساد في الأرض؛ فإنَّ الله لا يحبُّ المفسدين، وهذا من أسباب زوال النِّعمة، وهكذا بذلوا له النُّصح بكل إخلاص، فأدَّوا ما عليهم.

فقابلْ بالقبولِ صحيحَ نصحي *** فإنْ أعرضتَ عنه فقد خسرتَ
وإن راعيتَه قولًا وفعلًا *** وتاجرتَ الإلهَ بهِ ربحتَ
فليست هذه الدُّنيا بشيء *** تسوؤك حقبةً وتسرُّ وقتا
وغايتها إذا فكَّرت فيها *** كفَيْئِكَ أو كحلمك إنْ حلمتَ
سُجِنتَ بها وأنتَ لها محبٌّ *** فكيف تحبُّ ما فيه سُجِنتَ؟!
وتُطعِمكَ الطَّعامَ وعن قريبٍ *** ستَطعَمُ منك ما منها طَعِمْتَ

وهنا فائدة هامَّة -إخواني الكرام- وهي أنَّ أيَّ لون من ألوان القوَّة والتي عُبِّر عنها في هذه القصَّة بالمال؛ لا ينضبط أبدًا إلَّا بالعلم، فأيُّ لون من ألوان القوَّة سواء كان مالًا أو سلطانًا أو غيرهما إنْ لم يكن العلمُ قرينًا له؛ فإنَّه يصير وبالًا وعذابًا على صاحبه.

وقال النبيُّ ﷺ كما عند الترمذيِّ بسند حسن[1]: (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ

[1] قال الترمذي: هذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ المَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ).

الله أكبر! فخيرُ هؤلاء من رُزِقَ العلم مع المال؛ لأنَّه يضع المال في المكان الصَّحيح الذي يحبُّه الله ويرضاه.

العلمُ كنزٌ وذخره لا تعادلهُ *** نِعمَ القرينُ إذا ما عاقلٌ صَحِبَ
يا جامعَ العلمِ نعم الذُّخر تجمعهُ *** لا تعدلنَّ به دارًا ولا ذهبًا
واشددْ يديك به تحمد مغبَّته *** به تنالُ الغنى والدِّينَ والحَسَبَ
قد يجمعُ المرءُ مالًا ثم يُسلَبُهُ *** عمَّا قليلٍ فيلقى الذُّلَّ والحَرَبَ

هكذا نصحه قومه وذكَّروه بالله وأدَّوا ما عليهم، إلا أنَّه عاندَ وكابرَ وأخذته العزَّة بالإثم، فكان ردُّه جملةً واحدةً لكنَّها تحمل شتَّى معاني الفساد والإفساد، {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي}، إنَّما أوتيته بعلمي ومجهودي وخبرتي في اكتساب المال، وهكذا زيَّن له الشَّيطان سوء عمله وصدَّه عن السَّبيل.

فقال -عز وجل-: {أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)} [سورة القصص] أي: ألم يعلمْ هذا المغبونُ المفتونُ بماله أنَّ الله قد أهلك مِن قبله مِن القرون الماضية مَن هو أشدُّ منه قوَّةً وأكثر مالًا؟! ولو كان المال يدلُّ على فضل لما أهلكهم، وهكذا هي سنَّة الله في خلقه، إنَّما يوسِّع على المعرضين عنه؛ لأنَّ الدُّنيا لا تساوي عنده جناح بعوضة، كما قال النبيُّ ﷺ: (لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)[1].

[1] رواه ابن ماجه، والترمذي، وقال: حديث صحيح غريب.

وقال -تعالى-: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)} [سورة الأنعام].

فإياك -أخي الكريم- أن تغترَّ بما أُوتِي أهلُ الباطل مِن قوَّة ونعيمِ الدُّنيا، فكم مِن مُستدرَجٍ بالنِّعم وهو لا يدري! بل إنَّ أعظم ابتلاء يُبتَلَاهُ المرء هو الابتلاء بالخير؛ قال -تعالى-: {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [سورة الأنبياء: ٣٥]، فالإنسانُ حين يُبتلَى بالشَّرِّ أو بالمصيبة؛ فإنَّه يُهرَعُ إلى ربِّه؛ قال -تعالى-: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)} [سورة يونس].

فهذه هي طبيعة الإنسان إذا ابتلي بالشَّر، أمَّا الابتلاء بالخير فقلَّ من يفطن إليه، وقلَّ مَن ينتبه إلى أنَّ هذه النِّعمة إنَّما هي اختبار من الله لينظر كيف يعمل، وما يتبطَّر الإنسان إلا عند شعوره بالاستغناء؛ قال -تعالى-: {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦)} لماذا؟ {أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)} [سورة العلق]، فعلَّة الطُّغيان بيَّنها الله -عز وجل- أوضح بيان، وهو الغنى والاستغناء عن النَّاس، فاحذروا -عباد الله- مِن ابتلاء النِّعم؛ فإنَّه خطير وقلَّ مَن ينتبهُ له فيقول: {هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

ثمَّ إنَّ الله منَّ عليه وفتح له أبواب السَّماء، حتى صارت مفاتيح كنوزه يعجز عن حملها العصبةُ أولو القوَّة من الرِّجال، فتجبَّر وطغى وبغى على قومه بسبب هذا المال.

وحيثما وُجِدَ طاغوت؛ فاعرف أنَّه لا يمكن أن يرضى لأحد أن يتوسَّع في لون من ألوان الحياة إلا أن يرضى عنه، فلا نعرف الوسيلة التي استرضى بها قارونُ فرعونَ وآلَه، وقد ذُكِر في بعض الرِّوايات أنَّ فرعون جعله رئيسًا على بني إسرائيل، فكان يظلمهم ويشيِّ بهم.

المهمُّ أنَّه لما بغى وتجبَّر قارونُ هذا على قومه؛ قام الصَّالحون من قومه ينصحونه ويذكِّرونه بفضل الله عليه وما يجب عليه في هذا المال، حتى يحافظ على هذه النِّعمة، فما كان منه إلا أن أعرض عنهم، وأجابهم بجملة واحدة تشتمل على كل ألوان الجحود والنُّكران: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي}، إنَّما أوتيته بعلمي ومجهودي وخبرتي في اكتساب المال، فظنَّ بجهله وغباوته أنَّ هذا المال إنَّما هو دليلٌ على محبَّة الله له.

ونسي ذلك المفتون أنَّ الله قد أهلك قبلَه مَن هو أشدُّ منه قوَّةً وأكثرُ جمعًا، وهكذا أخذ قارونَ الكبرُ والغرورُ والبطرُ والخيلاءُ بنعم الله -عز وجل- قال -تعالى-: {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)} [سورة القصص]، فكان إذا أراد الخروج؛ لا يخرج إلا في موكب عظيم من المراكب والخدم والحشم، وفي بهرجة وزينة عظيمة من الثِّياب والحلي، فكان فتنةً عظيمةً على قومه، فبنو إسرائيلَ مستضعَفون مستذلُّون يسومهم آلُ فرعونَ أشدَّ العذاب، استباحوا أعراضَهم وقتَّلوا أبناءهم، وضيَّقوا عليهم العيش أشدَّ تضييق، ثمَّ إذا بهم يرون قارون وهو كان يومًا من الأيام واحدًا منهم مستضعفًا مثلهم؛ فلا شكَّ أنَّ ضعاف النفوس ممَّن يريدون الحياة الدُّنيا حين يرون هذا الحال سيقولون ما قالوا: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}.

فسبحان الله! ما أشبه طواغيت الأمس بهم اليوم! تشابهت قلوبهم وعقولهم، وتشابهت سياساتُهم في كل زمان ومكان، ففي كل مكان فيه طاغوتٌ تجدُ دائمًا شعبًا جائعًا لا يعرف عن دينه إلا النَّذر البسيط، حتَّى تصير الفئة العظمى منهم لا همَّ لهم إلا أبسط الحقوق.

فإذا انفجروا؛ خرجوا ينادون بالعيش والحرِّيَّة والعدالة الاجتماعيَّة، ونسوا شريعة رب البريَّة، فهناك فئة عريضة ممَّن عاشوا في غيابة عصور الطَّواغيت، إذا منَّ الله عليهم بإقامة شرعِ الله في الأرض وبَسْطِ الدِّين ومعرفة التَّوحيد؛ لم يكن لهذا كلِّه وزن عندهم، بل إنَّ المقياس الوحيد عنده هو الخبز والكهرباء ومُتَعُ الحياة الدُّنيا، كالأنعام ترتفع أصواتُهم إذا لم يجدوا الأعلاف والطَّعام، ولا تسمع لهم صوتًا إذا انتُهِكَتْ محارمُ الدِّين.

وكما أنَّ هذه الفئة لا يخلو منها زمان ولا مكان؛ فكذلك هناك فئة منصورة لا تزال على الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم، فترى هذه الفئة في كل زمان تصدع بالحق، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتتبرَّأ من أهل الباطل لا تخاف في الله لومة لائم؛ قال -تعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)} [سورة القصص].

ويلكم يا عباد الله! إنَّما عند الله خير ممَّا أوتي قارونُ بسخط الله، فاعملوا الصَّالحات، وآمنوا أنَّ الله هو الرزَّاق المدبِّر، وأيقنوا بذلك تنالوا رضا الله، واصبروا على ما ابتُلِيتُم به تنالوا جنَّتَه.

ومِن رحمة الله -عز وجل- أنْ أهلك قارونَ أمامَ أعينهم؛ ليستيقنوا بالله وأنَّه -عز وجل- مهلك الظَّالمين؛ قال -تعالى-: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)} [سورة القصص]، فهكذا خسف الله به وهو في أوج غروره وبطره وتكبُّره.

قال رسول الله ﷺ كما عند أحمدَ بسندٍ حسن[١]: (بَيْنَمَا[٢] رَجُلٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ خَرَجَ فِي بُرْدَيْنِ أَخْضَرَيْنِ، يَخْتَالُ فِيهِمَا، أَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ، وَإِنَّهُ لَيَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، خسف الله به وبداره الأرض، فلم يغن عنه خدمُه ولا حشمُه ولا جاهُه ولا سلطانُه.

وتنكَّر له من كان يتزلَّف له ويظهر له الودَّ والمحبَّة بالأمس، بل حتَّى الذين كانوا يتمنَّون مكانه بالأمس ما كان منهم إلا أن مطُّوا شفاههم في تعجُّب قائلين: {وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ}.

---

[١] قال الأرنؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، لضعف النضر بن إسماعيل.

[٢] وفي طبعة الرسالة لمسند الإمام أحمد: (بَيْنَا).

وهكذا حقيقة عامَّة النَّاس ممَّن تحرِّكهم الشَّهوات والانفعالات، يسيرون خلفَ كلِّ ناعق لا ينفعون ولا يضرُّون، وهذه -والله- مِن أعظمِ فوائد القصَّة، فكم مِن مضيِّع لحدود الله بحجَّة استرضاء العوام! وكم مِن معطِّل لأحكام الله بحجَّة كسب القاعدة الشَّعبية! وكم من مبدِّلٍ لشرع الله معطِّلٍ لإقامته بين النَّاس بحجَّة التَّدرُّج في الشَّريعة وعدم الإثقال على النَّاس!

فيا أيُّها المغبون، يا أيُّها المفتون بالنَّاس، اعلم أنَّ الملتحفَ بالنَّاس ملتحفٌ بالعراء، وأنَّ الذي يظنُّ أنَّه قد ستر عورته بالنَّاس فقد سترها بالهواء؛ فهم أوَّل من سيبيعك بعرَض رخيص، وهم أوَّل من سيُسخِطهُمُ اللهُ عليك كما أسخطتَّ الجبَّار طلبًا لرضاهم عنك.

آه لو تفهمون أنَّ هذه القاعدة الشَّعبيَّة هي أوَّل من سينقلب عليكم، ضيَّعتم دنياكم وآخرتَكم من أجل سرابٍ تحسبونه ماءً، وهكذا عرف مَن يريد الحياةَ الدُّنيا أنَّ وعد الله حق، وأنَّه لولا رحمة الله عليهم ولطفُه بهم؛ لأهلكهم وخسف بهم كما أهلك قارون، وعرفوا أنَّ المال ليس بدالٍّ على رضا الله عن صاحبه؛ فإنَّ الله يعطي ويمنع ويضيِّق ويوسِّع ويخفض ويرفع، وكل ذلك بحكمة تامَّة وتقدير عليم.

ثم ختم الله -عز وجل- القصَّة ختامًا بليغًا مُبِيْنًا بيَّن أهمَّ دروسها المستفادة، قال -تعالى-: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)} [سورة القصص].

فهذه أعظم فائدة، وهي أنَّ العاقبة والخاتمة تكون لمن؟ تكون للمتَّقين، فهنيئًا لكم أهلَ التَّقوى؛ فالعاقبة لكم يا من صبرتم وتحمَّلتمُ الأذى والبلاء والتَّضييقَ عليكم في العيش، هنيئًا لكم يا من بذلتم مُهَجَ أرواحِكم في سبيل الله لإعلاء كلمته؛ فالعاقبةُ لكم.

نسأل الله -عز وجل- أن يجنِّبنا الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزقنا شكر النِّعم وحسنَ الأداء بها في طاعة الله، وأن ينصر إخواننا المجاهدين على القوم الكافرين؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وإلى لقاءٍ آخر

-إن شاء الله تعالى- وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١٦: قصة موسى عليه السلام مع فرعون وسحرته

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقةٍ جديدة من حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

وبعد أن تعرَّضنا لقصص بني إسرائيل في الكتاب التي ذُكِرَت في مواضعَ معيَّنة به جملةً واحدة، يبقى لنا أن نتعرَّض لمجموعة من المشاهد من قصصهم المتفرِّقة بين ثنيات الكتاب، وكما ذكرها الله -عز وجل- على هيئة مشاهد مختصرة مكرَّرة في عدَّة سُوَر؛ ليذكِّر بها بني إسرائيل ويثبِّت بها فؤاد النَّبي ﷺ والأمَّة من بعده، ويعلِّم الأمَّة من بعده ما فيها من فوائد وعبر ودروس، نذكرها كذلك نحن في مشاهد نعرِّج عليها حتَّى نكون بذلك أتممنا قصص بني إسرائيل في كتاب ربِّ العالمين.

المشهد الأوَّل؛ هو مشهدٌ حدث في جمع كبير أمام مرأى ومسمع جموع غفيرة من بني إسرائيل خاصَّةً ومن أهل مصرَ عامَّة، يروي لنا هذا المشهدُ قصَّةَ تحوُّل حالِ قومٍ جاؤوا كفَّارًا ما يبتغون إلا المال ومتاع الدُّنيا الزَّائل؛ فتحوَّلوا بقدرة العليِّ القدير ومالكِ القلوب ومقلِّبِها إلى مؤمنين زاهدين في الدُّنيا، طامعين في الآخرة وثوابِها، صابرين على الأذى، ثابتين ثباتًا عجيبًا؛ قال -تعالى-: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)} [سورة الشعراء].

إنَّه مشهدُ يوم الزِّينة الذي ذُكِرَ في أكثر من موضع في كتاب الله، وفيه أنَّه بعد أن أفحم موسى -عليه السلام- عدوَّ الله فرعونَ بالحجج الباهرات؛ لم يجد فرعون مفرًّا من الكذب على موسى ورميه بالتُّهم الجاهزة المحفوظة حتَّى لا يجتمع النَّاس حوله، فقال للملأ ممَّن

هم حوله يستمعون وينظرون: {إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}، وهكذا هي عادة أهل الباطل في كل زمان ومكان؛ فعندهم تهم جاهزة يرمون بها أهل الحقِّ حتى ينفضَّ الناس من حولهم، هكذا يظنُّون، وحتَّى يستروا عوراتِ باطلهم بهذه الأكاذيب.

وهكذا اجتمع النَّاس في يوم الزِّينة ليكونوا شاهدين على هذا التَّحدِّي بين الباطل والحقِّ، وجاء السَّحرة الذين لا يخلو زمانٌ فيه طاغوتٌ إلا وتجدهم؛ فقد تراهم في زمانٍ في صورة سحرة يسحرون أعين النَّاس ويسترهبون قلوبهم، وقد تراهم في أزمانٍ في صورة شيوخ وعلماءِ سوءٍ يسحرون عقول النَّاس بلسانهم العليم، العليمِ في تحريف الكَلِمِ عن مواضعه، فيحلُّون الحرام ويحرِّمون الحلال، ويقلبون الحقَّ باطلًا والباطلَ حقًّا، ويصفون أهل الحقِّ بالضَّلال وأهلَ الباطل بأولياء الله الصَّالحين، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم.

جاء السَّحرة في بطر وغرور ينادون بعزَّة فرعون، يخادعون النَّاس ويسترهبونهم، ويتزلَّفون وينافقون طاغوتَهم فرعون -عليه لعنة الله- طالبين الأجرَ منه، طامعين في رضاه وقربه؛ قال -تعالى-: {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا} [سورة طه: ٦٥-٦٦]، فاختار موسى أن يبدأوا همْ أوَّلًا ليستفرغوا وسعهم فيما عندهم مِن باطل، فلمَّا قال لهم موسى ذلك؛ ألقوا حبالهم وعصيَّهم وقالوا: بعزَّة فرعونَ إنَّا لنحن الغالبون، قال -تعالى-: {قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)} [سورة طه].

كان سحرهم مِن باب الخيالات وسحْرِ أعينِ النَّاس، وهنا أوجس في نفسه خيفةً موسى، ولا ينبغي لأحد أن يظنَّ أنَّ خوف موسى هنا هو عدم ثقة بالله، حاشاه! فهذا كلُّه من الخوف الجبليِّ ومن خوف الفجأة المأجور صاحبه، بل إنَّ صاحب الحقِّ يخاف

ويحرص على أن يَظهَر هذا الحقُّ لأهله وقومه الذين يدعوهم؛ ليبطل الباطل الذي يظنُّونه حقًّا.

ثمَّ إنَّ الله أوحى إليه وناداه أن لا تَخَفْ؛ فأنت الأعلى لأنَّك على الحقِّ، والحقُّ يعلو ولا يُعلَى عليه، فصنيعهم هذا من كيد السَّحرة، والسَّحرة لا يفلحون أبدًا أينما كانوا، وهنا ناداهم موسى بعزَّة وثبات وقوَّة قائلًا ومردِّدًا كلامَ ربِّه بعد أن بشَّره بالغلبة عليهم: {قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس].

وهكذا ينبغي أن يكون يقين أهل الحقِّ؛ أنَّ الباطل مهما طال عمره ومهما عظم شأنه؛ فإنَّ نصر الله للحقِّ قريب، وإنَّ نهاية الباطل حتميَّة لا ريب فيها؛ قال -تعالى-: {فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧)} [سورة الأعراف]، فلما ألقى موسى -عليه السلام- عصاه إذا بها تتحوَّل لثعبانٍ ضخمٍ عظيم الجثَّة مُفزِعًا لا يشكُّ أحد في أنَّه ثعبان، يسعى ويتحرَّك حقيقةً لا متخيَّلًا كما في سحرهم، فابتلع هذا الثُّعبان كلَّ ما صنع السَّحرة مِن حبال تسعى، الله أكبر! قال -تعالى-: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢)} [سورة الأعراف]، الله أكبر! وهكذا هي السُّنة الرَّبانيَّة التي لا تتخلَّف أبدًا، فمهما تكبَّر الباطلُ ومهما انتفش، ومهما استرهب القلوب، وظنَّ النَّاسُ أنَّه لا غالب له؛ إلا أنَّه بمجرَّد أن يأذن الله بفضحه وانكساره؛ فإنَّ الحقَّ يَقصِمه فلا يبقي منه ولا يذر.

وانظر إلى التَّعبير القرآنيّ البليغ: {فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ}، وكأنَّه سيف بتَّار ينزل بقوَّة وثقل ليقطعَ رقبةَ الباطل، ثمَّ كانت المفاجأة العظيمة والضَّربة القاصمة للباطل، وهي سجود السَّحرة مؤمنين وقد خالط نور الإيمان وبشاشته قلوبهم؛ إنَّها صولة الحقِّ المزلزلة لأركان الباطل، فتأمَّل -أخي الكريم- كيف يقلب الله القلوب فإذا بالسَّحرة رؤوسِ الطَّواغيت ذراعِ رأسِ الكفر وإمامِه فرعون وعصاه التي يرهب بها النَّاس؛ يتحوَّلون في لحظة واحدة إلى مؤمنين ثابتين راسخين!

وهنا فائدتان هامَّتان؛ فأمَّا الأولى فهي أنَّه على الموحِّدين أن لا ييأسوا أبدًا مِن دعوةِ المخالفين، فلا تدري لعلَّ هذا الذي تظنُّه بعيدًا كلَّ البعد عن الهداية يكون يومًا من الأيَّام مِن أشدِّ النَّاس نصرةً للدِّين وضراوةً على الباطل، وقد ورد في بعض الآثار الصَّحيحة أنَّ أمَّ عبد الله بنت أبي حثمة -رضي الله عنها- قالت: "كان عمر بن الخطَّاب مِن أشدِّ النَّاس علينا في الإسلام، فلمَّا تهيَّأنا للخروج إلى أرض الحبشة؛ جاءني عمر بن الخطَّاب وأنا على بعيري أريد أن أتوجَّه -تعني الهجرةَ للحبشة- فقال: أين يا أمَّ عبد الله؟ فقلت: آذيتمونا في ديننا وقهرتمونا، فنذهب في أرضِ الله حيث لا نُؤذَى في عبادة الله، فقال: صحبكم الله، ورأيتُ له رقَّةً لم أكن أراها، ثمَّ انصرف وقد أحزنه -فيما أرى- خروجُنا، ثم ذهب، فجاءني زوجي عامر بن ربيعة فأخبرتُه بما رأيتُه من رقَّة عمر، فقال: تُرجِّين أن يسلم؟ فقلتُ: نعم، فقال: واللهِ لا يسلمُ حتَّى يسلمَ حمارُ الخطَّاب!" قالت يأسًا منه لِمَا كان يرى مِن غلظته وقسوته عن الإسلام.

فانظر -أخي الكريم- كيف يئس عامر -رضي الله عنه- مِن إسلام عمر لشدَّة غلظته وقسوته وأذيَّته ومحاربته للمسلمين حتَّى قال هذه الكلمة: "والله لا يُسلِم حتَّى يُسلِمَ حمار الخطَّاب!" كنايةً عن صعوبة هذا الأمر وبعده عن التَّحقيق، فإذا به لمَّا شرح الله صدره للإسلام عمر الفاروق، الذي كان يفرُّ الشَّيطان منه في الطُّرقات ويَفزَع، فعلى الموحِّدين أن لا ييأسوا أبدًا مِن أحد مهما اشتدَّ بلاؤه؛ إذ أنَّه ليس هناك أحد بعيد عن هداية الله -عز وجل-؛ فها هم السَّحرة الذين يُثبِّتون ملكَ رأسِ الكفرِ فرعون باسترهَابهم للنَّاس وسحرِ عقولهم وأعينهم؛ ينقلبون إلى صفِّ الموحِّدين ويؤمنون بربِّ العالمين.

وأمَّا الفائدة الثَّانية؛ فهي أنَّ نصر الله قريب ومحقَّق لا ريب فيه، ولكن لا بدَّ من التَّطهير ولا بدَّ من التَّمحيص وتنقية الصُّفوف حتَّى يَميزَ الخبيث من الطَّيب؛ قال -تعالى-: {مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [سورة آل عمران: ١٧٩]، هكذا هي عظيم قدرته وعجيب تدبيره وحكمته -سبحانه وتعالى-.

فتأمَّلْ كيف بعد أنِ اجتمع هؤلاء السَّحرة وقد ورد في الآثار أنَّ أعدادهم كانت كبيرة جدًّا، اجتمعوا جميعًا على موسى وشكَّلوا حلفًا ضدَّه؛ ليسقطوه ويمنعوا دعوتَه من البقاء ومن أن تتمدَّد وتنتشر بين النَّاس، تحالفوا جميعًا ضدَّ أهل التَّوحيد، {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}؛ ففي لحظة واحدة انهدم هذا التَّحالف بل وصاروا حلفاء للحقِّ ضدَّ الباطل بعد أن كانوا أعداء له منذ لحظات، وهكذا هي سنن الله في خلقه.

ولربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى *** ذرعًا وعندَ اللهِ منها المخرجُ
ضاقت فلمَّا استحكمت حلقاتها *** فُرِجَتْ وكان يظنُّها لا تُفرَجُ

فلا تهولنَّكم أنتم -إخوة التوحيد والجهاد- هذه الجموع، ولا تربينَّكم كثرة التَّحالفات، ولا يغرَّنَّكم قوَّة الباطل وانتفاشه؛ فإنَّ الله قاصره وكاسره كَسْرةً لا قِيَمَ لها.

أيقن السَّحرة الذين عاشوا سنوات في هذا السِّحر يعرفون مداخلَه ومخارجَه وأوَّله وآخرَه؛ فأيقنوا أنَّ ما فعله موسى ليس من قبيل السِّحر بل هو آية من آيات ربِّ العالمين، فخرُّوا لله ساجدين وآمنوا بربِّ العالمين، وهكذا كانت ضربة الحقِّ قاسيةً لفرعون -عليه لعنة الله- ومزلزلة له ولأركان عرشه، فأخذ يرعد ويزبد: {قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ}.

فانظروا إلى الغرور والكبر: {آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}! وهل كان عليهم أن يستأذنوك قبل أن ينير الإيمانُ قلوبهم وهم لا سلطانَ لهم على هذه القلوب؟! ثمَّ انظروا إلى هذا الكذب الأصلع الذي لا يُتخيَّل لأحد أن يبتلعه أو يستسيغه: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}! أبعد كل هذه السَّنوات مِن الكفر والزَّيغ واسترهَاب قلوبِ النَّاس وعقولهم؛ هكذا فجأة اكتشفتَ -يا من تدَّعي أنَّك ربُّ العالمين- أنَّه كبيرهم؟! فإن كنتَ غافلًا عن هذه الحقيقة من قبل هذا فهي -والله- مصيبة، وإن كنت تعلم؛ فالمصيبة أعظمُ، فكيف فجأة صار كبيرَهم؟! ما هذا الكذب، وما هذا التَّزييف للحقائق، وما هذا الإفك المبين؟! لكنَّ

العجب أنَّه رغم هذا الكذب المفضوح الواضح المُبِينِ لكلِّ مَن له ذرَّة عقل إلا أنَّه قد وُجِد من يتقبَّله ومن يصدِّقه.

لا تفهمْ؛ هل هي غباوة عقل أم هوى نفس أم ظلمة بصيرة أم كلُّ ذلك جميعًا؟! رغم أنَّ هذا حدث أمام أعين النَّاس جميعًا مِن بني إسرائيل ومن آل فرعون بل ومن كلِّ الأمصار التي اجتمعت في هذا اليوم المشهود؛ إلا أنَّه لم يؤمن لموسى إلا ذريَّة قليلة مِن قومه، كما قال الله -تعالى-: {فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ} [سورة يونس: ٨٣]، فالعجب أنَّ هناك مَن صدَّقوا هذه الكذبة وهذه الفرية التي لا تنطلي حتى على غرٍّ ساذج، لكن كما قالوا:

لكلِّ ساقطةٍ في الحيِّ لاقطةٌ *** وكلِّ كاسدةٍ يومًا لها سوقُ

وما أشبه اللَّيلة بالبارحة؛ فكم مِن صارخٍ وكم من كاذب مستنٍّ بفرعونَ في رمي الموحِّدين والمجاهدين بأبطل الأباطيل!

فهذا يقول: "عملاء لإيران"، وهذا يقول: "عملاء للنِّظام النُّصيري"، وهذا يقول: "صناعة مخابراتيَّة أمريكيَّة"، وكل هؤلاء قتلاهم من الدَّولة بالعشرات! وكيف يكونون عملاء لمن حشد الحشود وجمع التَّحالفات وأنفق المليارات وبذل كلَّ ما في الوسع لقتال الموحِّدين مِن دولة الإسلام؟! فمع تفاهة هذه الأكاذيبِ وإفكِها الواضح المبين إلا أنَّك تجد مَن يلتقطها ويكرِّرها كالببغاء الأحمق الذي لا يعي ما يقول، لو جاءه الحق بكلِّ آية أمام عينيه؛ لأغمض عينيه وأقنع نفسه أنَّه لم يرَ شيئًا، وأنَّ الثُّعبان لم يلقف ما صنعوا، وأنَّ السَّحرة لم يسجدوا لربِّ العالمين، وأنَّه لا يفهم حقيقةَ اللُّعبة أحدٌ سواه؛ فهو وحده الذي يفهم اللُّعبة، وهو وحده الذي يعلم حقيقةَ الأمر؛ وهي أنَّ موسى هو كبير السَّحرة، وأنَّ هذا ما هو إلا مكرٌ مَكَرَهُ معهم ليفرِّق بين الأهل والأصحاب، ويخرج أهل مصر منها، وما حدث يوم الزِّينة ما هو إلا تمثيليَّة متَّفق عليها بين السَّحرةِ وكبيرِهم موسى ليخدعوا بها السُّذج من النَّاس، لكن على من؟ إنَّه الفَاهِمُ الواعي لهذه اللُّعبة!

فهكذا هذه الفئة العجيبة مِن النَّاس كانوا في زمان فرعون، وهكذا يستخفُّ كلُّ طاغوت قومه، والعجب أنَّهم يصدِّقونه رغم هذا الاستخفاف السَّخيف.

إلا أنَّ الموحِّدين الموقنين المخلَصين في امتثالهم للحقِّ، الذين شرح الله صدرَهم للإيمان، وأزاح الغشاوةَ مِن على أعينهم، ورزقهم البصيرة، وأذن لقلوبهم أن تنصاعَ للحقِّ؛ فإنَّهم يرون الحقَّ واضحًا وضوح الشَّمس، فلم يتردَّدوا في اتِّباعه وسجدوا لله وأذعنوا لله، ولم يُرهِبْهم هذا التَّهديدُ والوعيدُ، بل ردُّوا عليه بإيمان صادق وثابت وراسخ: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ}.

الله أكبر! هذه هي بركةُ الإيمان إذا خالطتْ بشاشتُه القلوب، ثباتٌ كالجبال لا يزلزله أعتى الزَّلازل، ولا يخيفه أشدُّ الوعيد والتَّهديد، هذه القلوب التي كانت منذ لحظة تعنى بفرعونَ وتعدُّ القربَ منه مغنمًا؛ فإذا هي بعدَ لحظةٍ واحدة تواجهه في قوَّة وثبات، وتزهد في ملكه وزخرفه، وترغب عن جاهه وسلطانه، {لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا}، كفى خداعًا، كفى كذبًا وتزييفًا واسترهابًا لعقول النَّاس وقلوبهم؛ لقد عرفنا الحقَّ، لقد جاءتنا البيِّنات الواضحاتُ الباهرات، آن لنا أن تخشع قلوبُنا للَّذي فطرنا، آن لنا أن نكون عبادًا لله الواحدِ القهَّارِ المستحقِّ لجميع ألوان العبادة، {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}؛ فسلطانك مقيَّد بها، وما لك من سلطان علينا في غيرها، وما أخسر الحياة الدُّنيا! وما أهون الحياة الدُّنيا! وما تملكه لنا مِن عذابٍ أيسرُ من أن يخشاه قلبٌ يتَّصل بالله ويأمل في الحياة الخالدة أبدًا.

إنَّه الطَّمع في الآخرة والزُّهد في الدُّنيا الفانية، إنَّه الصَّبر والثَّبات، ثمَّ ها همْ يعلنونها صريحة: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}،

فلعلَّ الله يتقبَّل منَّا إيماننا به -سبحانه وتعالى- فيغفر لنا ما مضى مِن سحرٍ أكرهتَنا عليه؛ وذلك أنَّ فرعون كان ينتقي الغلمانَ الأذكياء، فيأخذهم من آبائهم ويعلِّمهم السِّحر كرهًا ليُنشِّئوا من صغرهم على السِّحر.

ثم انظر -أخي الكريم- كيف صاروا دعاة للحقِّ هداةً للخير في اللَّحظة الأولى من إيمانهم، يدعون فرعون والنَّاس للتَّوحيد، ويُرغِّبونهم فيما عند الله مِن درجاتٍ عُلَى وجنَّاتٍ تجري مِن تحتها الأنهار، ويرهِّبونهم مِن أن يموتوا على شركهم وإجرامهم فيُقذفوا في جهنَّم، كم مِن مسلمٍ اليوم مرَّ على إسلامه سنواتٍ طويلةً فلم يقمْ لله داعية ولم يذكِّر النَّاس ولم يأمرْ بالمعروف ولم ينهَ عن المنكر! لم يقف داعيًا لله -عز وجل- بين قومه وبين أقاربه؛ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}، {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

فها هم السَّحرة وهم لا زالوا حدثاءَ عهدٍ بإسلام، ها هم يقومون بحقِّ الرِّسالة في دعوة فرعونَ والنَّاسِ للتَّوحيد وعبادةِ ربِّ الأرض والسَّماوات، فيا لها مِن نهاية عجيبة لهذه القصَّة! كانوا في أوَّل النَّهار سحرة، فصاروا في آخرِه شهداءَ بررة! صَلَبَهُمْ فرعونُ وقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فلم يرجعْ منهم واحدٌ عن دينه، وماتوا على التَّوحيد ثابتين صابرين محتسبين؛ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}.

نسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا الثَّبات حتَّى الممات، وأن يثبِّت أقدام المجاهدين وينصرهم على القوم الكافرين، وأن يشرح صدور الموحِّدين بنصر قريب عزيز مؤزَّر؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وإلى لقاء آخر -إن شاء الله- وحلقةٍ جديدة مِن حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحلقة ١٧ : قصة موسى عليه السلام مع السامري

إذاعة البيان تقدِّم برنامج "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل"

بسم الله، والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ﷺ أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه في الأوَّلين والآخرين، ثمَّ أمَّا بعد؛ فأهلًا بكم ومرحبًا -إخوتي الكرام- وحلقةٍ جديدة مِن حلقات "أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل".

ونحن اليوم على موعدٍ مع هذه المشاهد المتفرِّقة في كتاب الله -عز وجل- التي ورد فيها قصص بني إسرائيل، فبعد أن خرج موسى -عليه السلام- مِن مصر وتجاوز البحر؛ وعدهم ربُّهم جانب الطُّور الأيمن، فتعجَّل موسى -عليه السلام- وسبق قومه إلى ربِّه في شوق المحبِّ لمحبوبه وطلبًا لإرضائه، وما صبر على هؤلاء الذين سيعطِّلونه بانشغالهم بالطَّعام والشَّراب، فأمَّر هارون -عليه السلام- عليهم وتركهم فيما هم فيه.

وهذا حال المحبِّ دائمًا؛ مشغولٌ بإرضاء ربِّه، لا يتأخَّر عنه، يسارع في الخيرات، ودائمُ الخوفِ مِن غضب ربِّه وعقابه، شعاره: {إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}، يرى ذنوبَه كالجبال التي يخاف أن تقعَ على أمِّ رأسه فتُهلِكَه.

وهكذا بمجرَّد أن غاب موسى -عليه السلام- ظنَّت جماعةٌ منهم -عياذًا بالله- أنَّ الله قد غاب معه، ونسوا أنَّ الله لا يغفل ولا ينام ولا يغيب عنهم مثقال الذَّرة، فجمعوا الحليَّ والذَّهب الذي كانوا استعاروه من أهلِ مصرَ المشركين حينئذ، جمعوا هذا الذَّهب وناولوه لرجل خبيث منهم، وقيل: ليس منهم بل أسلم معهم، هذا الرَّجل يدعى السَّامريَّ، نسبةً إلى قبيلته، وقيل: نسبة إلى سامرَّاء، فدفعوا إليه هذا الذَّهب ليصنع لهم عجلًا جسدًا له خُوَارٌ.

وقيل: إنَّ هارون لمَّا علم باستعارتهم لهذا الحليِّ؛ أنكر عليهم وقال لهم: "يا بني إسرائيل، إنَّ الغنيمة لا تحلُّ لكم، وإنَّ حليَّ القبطِ إنَّما هو غنيمة، فاجمعوها جميعًا واحفروا لها حفرةً فادفنوها، فإنْ جاء موسى فأحلَّها أخذتموها، وإن كان شيئًا لم تأكلوه"، فجمعوا ذلك الحليَّ في تلك الحفرة، وجاء ذلك السَّامري الخبيث، وقيل: إنَّه كان قد أبصر جبريل -عليه السلام- في إحدى لقاءاته بموسى -عليه السلام-، فقبض قبضةً من آثار أقدامه أو أقدام فرسه، فصنع هذا العجلَ من هذا الحليِّ، وقذف فيها هذا الأثر، فلمَّا أتمَّه صار للعجل خوارٌ مخيف، فادَّعى كذبًا وزورًا وبهتانًا أنَّ هذا الجسد الذي لا حياة فيه هو ربُّ موسى وربُّ العالمين! تعالى الله عمَّا يقول علوًّا كبيرًا؛ قال -تعالى-: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩)} [سورة طه].

أي: أنَّ هذا هو إلهكم وإله موسى الذي ذهب يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا، وقد نسي موسى الطَّريق إلى ربِّه وضلَّ عنه، ولو كانت لهم عقولٌ وفطر سويَّة سليمة؛ لعرفوا أنَّ هذا العجل لا يملك لهم ضَرًّا ولا نفعًا بل إنَّه حتَّى ليس بحيٍّ ليفهم أو يعي نداءهم ودعاءهم الذي يدعونه إياه.

وهنا أنكر عليهم نبيُّ الله هارون -عليه السلام- أشدَّ الإنكار، فقال لهم كما أخبرنا الله -تعالى-: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)} [سورة طه]، فأنكر عليهم وبيَّن لهم أنَّهم ابتُلوا بهذا العجلِ وفُتِنُوا به، وأنَّ الله -عز وجل- لا يمكن أن يكون هذا الجسدَ الذي لا يضرُّ ولا ينفع ولا يرجع إليهم قولًا، حاشاه أن يكون، بل هو الله الرَّحمن صاحبُ صفاتِ الكمالِ المنزَّهُ عن كلِّ عيب ونقص -سبحانه وتعالى-، وأمرهم -عليه السلام- باتِّباعه وطاعة أمره، فانقسمت بنو إسرائيلَ إلى فرقتين: فرقة مِن المؤمنين الصَّالحين أنكروا عليهم كما أنكر هارون -عليه السلام-، وفرقة قالت: "لا نكذِّب بهذا حتَّى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربَّنا لم نكن ضيَّعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربَّنا فإنَّا نتَّبع قول موسى".

إلا أنَّ الفرقة المشركة كانت أكثر شوكة وعددًا من الفرقة المؤمنة، فزجروهم وهدَّدوهم وتوعَّدوهم بالقتل، كما أخبر بذلك هارون لموسى -عليه السلام- فقال: {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي}، ولمَّا بلغ موسى الطُّور وكلَّمه ربُّه تكليمًا؛ أخبره الله -عز وجل- أنَّه قد فَتَنَ قومَه بواسطة السَّامري؛ قال -تعالى-: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦)} [سورة طه].

فرجع موسى -عليه السلام- إلى قومه تسبق خطاه وقد ملأ قلبَه الحزنُ والأسى على هؤلاء القوم الذين لم يلبثوا أن يخرجوا من ذلِّ فرعونَ وملئه وذلِّ المعيشة في دار الكفر؛ حتَّى غلبتهم أنفسُهم وغلبهم طبعُهم العنيدُ والبيئةُ التي عاشوا فيها سنوات طويلة في ذلٍّ بين أظهر المشركين.

وبمجرَّد أن رأى ما أخبره ربُّه حتَّى تملَّكه الغضب، فألقى الألواحَ وأنكر عليهم إنكارًا شديدًا مستنكرًا حالهم، وهكذا حالُ كلِّ مؤمن إذا انتُهِكَت محارمُ الله؛ فالغضب لله مِن علامات الإيمان ومِن أصول الولاء والبراء؛ فالمؤمن يحبُّ من يحبُّ الله، ويبغضُ من يبغضه الله، ويفرح إذا تمكَّن دين الله وأقيمت حدودُه، ويغضب ويصيبه الهمُّ والحزن إذا انتهكت حدود الله وضُيِّعَتْ شرائعُه؛ لذا قال النبيُّ ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)[1]، فالمؤمن لا يكون مؤمنًا إذا لم يغضبْ لله، يرى شريعةَ ربِّ العالمين تُنحَّى وسنةَ نبيِّه يُطعَن فيها، ونساءَ المسلمين تُنتهَك أعراضهم ويُعتقلنَ في السُّجون، وأهلَ الكفرِ يتسلَّطون على المسلمين، فلا يغضبُ لله ولا يقوم فيدفع عن دين الله، فيجاهدهم بنفسه وماله، أيَّ دين وأيَّ شيء ستلقى الله به غدًا يا أيها القاعدُ عن الجهاد؟!

[1] رواه أبو داود والطبراني في الأوسط. قال الهيثمي: فيه صدقة بن عبد الله السمين، ضعفه البخاري وأحمد، وغيرهما، وقال أبو حاتم: محله الصدق.

وهكذا أنكر موسى على قومه إنكارًا شديدًا، يا قوم ألمْ يعدكم ربُّكم بالنَّصر؟! ألم يعدكم ربُّكم بالتَّمكين بفتح بيت المقدس؟! ألم يعدكم بجنَّة عرضها السَّماوات والأرض؟! أم طال عليكم الانتظار؟! بل أردتم -والله- أن يحلَّ عليكم غضبُ الله -عز وجل- فأخلفتم موعدي ولم تلحقوا بي، فكان جوابُهم أعجبَ من فعلهم؛ قال -تعالى-: {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)} [سورة طه]، فزعموا أنَّ ما فعلوه مِن عبادة العجل لم يكن بملكهم ولا بإرادتهم، وأنَّه أمر أُكرِهوا عليه واضطُرُّوا إليه؛ إذ أنَّهم أرادوا أن يتخلَّصوا من ذنب غلِّ الحليّ الذي أخذوه مِن أهل مصر، فأخذها السَّامريُّ ففعل ما فعل، واعجباه! ما أوهاها من حجَّة! وما أقبحه من عذر!

وهكذا كل متعدٍّ لحدود الله يزيّن له الشَّيطان فعله وشركه؛ فالذين أعانوا الطَّواغيت مِن عسكره وسحرته إنَّما أُكرِهوا على ذلك، وكانوا مستضعَفين في الأرض، ولولا هؤلاء الطَّواغيت المستكبرون لكانوا مؤمنين، وظنَّ هؤلاء وهؤلاء أنَّ هذه الحجج الواهيات ستنجّيهم من العليم الخبير.

ثمَّ إنَّ موسى توجَّه إلى هارونَ عاتبًا عليه عدم اتّباعه، فقال مَا أخبر الله -تعالى- به: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)} [سورة طه]، فبيَّن له نبيُّ الله هارون -عليه السلام- أنَّه أنكر على القوم إلا أنَّهم كادوا يقتلونه، وخشي أن يقاتلَهم فتدبَّ الفرقة بين القوم، وقد كانت بنو إسرائيل تهاب موسى -عليه السلام- هيبة شديدة، فآثر هارون -عليه السلام- ألا يُحدِث أمرًا حتَّى يعود موسى ويرى ما يرى في أمرهم.

ثمَّ إنَّ موسى التفت إلى السَّامري فسأله منكِرًا عليه وموبِّخًا له فهو صاحب الفتنة مِن أساسها فقال: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ} أي: ما شأنك وما حكايتك؟ فأخبره بقصَّته فقال: {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ

سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}، فاعتذر كما اعتذروا بأنَّ الأمر خارج عن إرادته، وأنَّ نفسه غلبته وزيَّنت له فعله الذي فعل، وهنا قضى عليه بعقوبة العزل في الدُّنيا، فلا يمسُّه أحدٌ ولا يمسسْ أحدًا، {قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}، فأمر موسى -عليه السلام- بني إسرائيل ممَّن لم يقع في الكفر أن لا يؤاكلوه ولا يخالطوه ولا يبايعوه، ثمَّ إنَّه يعود إلى ربِّه في موعد لن يستطيع أن يُخلِفه، فيعذِّبه بما يستحقُّ من العذاب الأليم.

ثمَّ أمر موسى -عليه السلام- بهذا الإله المزعوم الذي تعب في صنعه أيامًا طويلة أن يحرَّق أمام عينيه، ثم يُنسَفَ في البحر نسفًا فلا يبقى منه شيء، حتَّى يحرق قلبه حسرةً على إلهه المزعوم، ثمَّ أمر بني إسرائيل ممَّن وقع في الشِّرك بقتل أنفسهم ليتوب الله عليهم، وهذا مِن الإصر الذي رفعه الله على أمَّة محمد؛ إذ أنَّ الواحد منهم لو تاب عن الردَّة فإنَّ الله يتوب عليه.

ثمَّ إنَّ موسى -عليه السلام- اختار من قومه سبعين رجلًا ممَّن لم يشرك بالله ولم يعبد العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التَّوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيى نبيُّ الله موسى -عليه السلام- مِن قومه ومِن وفده حين فُعِلَ بهم ما فُعِلَ، فقال: {رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}.

وبهذا الدُّعاء وبهذا الابتهال دعا موسى -عليه السلام- ربَّه أن يغفر لقومه، وأن يتوب عليهم وأن يرحمهم وأن لا يعذِّبهم في الآخرة، فكان جواب العزيز الحكيم الغفور الرحيم: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُ م بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)} [سورة الأعراف].

وبهذا نكون بفضل الله ومنَّته وكرمه وحوله وطوله قد أتممنا قصصَ بني إسرائيل في القرآن، وبهذا ينتهي الجزء الأوَّل من هذه السِّلسلة التي أسأل الله أن يجعلها نافعة مباركة

خالصة لوجهه الكريم، وهي: أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل في كتاب الله، ويبقى لنا الجزء الثَّاني -إن شاء الله تعالى- مِن هذه الحلقات، ألا وهو: أسباب النَّصر والهزيمة في قصص بني إسرائيل في صحيحِ سنَّة النبيِّ ﷺ.

أسأل الله -تعالى- أن يجعلنا ممَّن يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، وأن ينصر عباده الموحِّدين المجاهدين ويرزقهم أسباب النَّصر، ويجنِّبهم أسباب الهزيمة؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وإلى لقاء في الجزء الثَّاني بإذن الله -تعالى-، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لا تنسوا إخوانكم من الدعاء

الخلافة
صباح